

افصل الأول

الكتاب وسيلة إعلامية

ما الكتاب؟

ليس أمامنا من سبيل لمعرفة الكتاب إلا أن نبدأ بتعريفه. وفي قواميس اللغة ومعاجمها نجد المعنى اللغوي للكتاب. وفي دوائر المعارف نكاد نصل إلى المصطلح المعاصر لتعريف الكتاب. ففي لسان العرب^(١) يزودنا ابن منظور بمردفات الكتاب، فهو الصحيفة والدواة وهو الغرض والحكم والقدر وهو

(١) في لسان العرب:

كتب: الكتاب: معروف، والجمع كتب وكتب. كتب الشيء يكتبه كتباً وكتاباً وكتابه، وكتبه: خطه. قال أبو النجم:

أقبلت من عند زياد كالمخرف

تخط رجلاي بخط مختلف

وتكتبان في الطريق لام ألف

قال: ورأيت في بعض النسخ يكتبان، بكسر التاء، وهي لغة جهراء يكسرون التاء، فيقولون تعلمون.

والكتاب أيضاً: الاسم، عن اللحياني. الأزهرى: الكتاب اسم لما كتب مجموعاً، والكتاب مصدر والكتابة لمن تكون له صناعة، مثل الصياغة والحياطة.

والكتابة: كتابك كتاباً تنسخه. وقال كتب فلان فلاناً أى سأته أن يكتب له كتاباً في حاجة. واستكتبه الشيء أى سأله أن يكتبه له. ابن سيده: اكتبته لكتبه. واكتبة: كتبه. وفي التزويل العزيز: اكتبها فهي تمل عليه بكرة وأصيلاً. أى استكتبها.

والكتاب: ما كتب فيه. وفي الحديث: من نظر في كتاب أخيه بغير إذنه فكأنما ينظر في النار. قال ابن الأثير هذا تمثيل، أى كمن يحذر النار فلحذر هذا الضنيع. وقيل معناه كأنما ينظر إلى ما يوجب عليه النار. قال: ويحتمل أنه أراد عقوبة البصر لأن الجنابة منه، كما يعاقب السمع إذا استمع إلى قوم، وهم له كارهون. قال: وهذا الحديث محمول على الكتاب الذي فيه سر وأمانة، بكرة صاحبه أن يطلع عليه، وقيل: هو عام في كل كتاب.

وفي الحديث: لا تكتبوا عني غير القرآن.

وفي قوله تعالى: ﴿والطور وكتاب مسطور﴾ قيل الكتاب ما أثبت على بنى آدم من أعمالهم. والكتاب: الصحيفة والدواة، عن اللحياني.

وكتب الرجل وأكتبه علمه الكتاب. والمكتب: المعلم والمكتب: الذي يعلم القراءة. والمكتب موضع الكتاب. وهما موضع تعليم الكتاب والجمع الكتابيب.

ورجل كاتب. والجمع كتاب وكتبة. وحرفته الكتابة والكتاب: الكتبة. ابن الاعرابي: الكاتب عندهم العالم.

قال الله تعالى: ﴿أم عندهم العيب فهم يكتبون؟﴾ وفي كتابه إلى أهل اليمن. وقد بعثت إليكم كاتباً من أصحابي، أراد عالماً، سمي به لأن الغالب على من كان يعرف الكتابة، أن عندهم العلم والمعرفة. وكان الكاتب عندهم عزيزاً، وفيهم قليلاً.

والكتاب: الغرض والحكم والقدر، قال الجعدي: يا ابنة عمي. كتاب الله أخرجني عنكم، وصل أمنن الله ما فعلاً؟

والكتاب يوضع موضع الغرض. قال الله تعالى: ﴿كتب عليكم القصص في القتلى﴾. وقال عز وجل: ﴿كتب عليكم الصيام﴾

معناه: فرض.

اسم لما كتب مجموعاً. وفي محيط المحيط^(١٢) يذكر بطرس البستاني أن الكتاب مصدر، وما يكتب فيه تسمية بالمصدر، سمي به لجمع أبوابه وفصوله ومسائله. وقد غلب الكتاب في العرف العام على جميع الكلمات المنفردة بالتدوين. وتقول موسوعة (لاروس) الفرنسية^(١٣) إن كلمة كتاب في الفرنسية Livre مشتقة من الكلمات اللاتينية Liber، والكتاب مجموعة من الأوراق المطبوعة والمجمعة في مجلد (volume) واحد أياً كان شكل التجليد. وهناك تعريف آخر بأنه مؤلف من النثر أو الشعر على شيء من التوسع والإسهاب. ويعرف الكتاب أحياناً بأنه فرع من المصنفات. والتعريف المجازي للكتاب بأنه مصدر من مصادر التعليم والثقافة، وتعبير بسكال (Pascal) بأن الضمير أعظم كتاب في الأخلاق. أما دائرة المعارف البريطانية^(١٤) فترى أنه لكي نحدد تعريف الكتاب فعن الضروري أن نبحث عن

= انظر:

لسان العرب لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور المجلد الأول - دار صادر ودار بيروت ١٩٥٥ م - ١٣٧٤ هـ - ص ٦٩٨ و ٦٩٩ و ٧٠٠.

(٢) في محيط المحيط:

كتب الكتاب يكتبه كذا وكتبه وكتابه خطه - والكتابة اسم لانها صناعة كالتيجارة والخطابة الكاتب اسم فاعل والعالم ومن عمله الكتابة والجمع كاتبون وكتاب وكتبه. ومنه الكتبه عند اليهود لعلماء التاموس وقراءته ومفسريه للشعب. والكتاب مصدر وما يكتب فيه تسمية بالمصدر، سمي به لجمعه أبوابه وفصوله ومسائله. والجمع كتب وكتب. والنواة والثورة والصحيفة والقرض والحكم والقدر. (لاحظ لم يذكر القرآن) وفي المصباح، وتطلق الكتبه والكتاب والمكتوب ويطلق على المنزل وعلى ما يكتبه الشخص ويرسله. قال أبو عمرو سمعت أعرابياً يأتياً يقول فلان توتت كتابه فاحتقرها، فقلت أتقول جاءته كتابي؟ فقال أليس بصحيفة، قلت ما اللقوب؟ قال: الأحمق. وقد غلب الكتاب في العرف العام على جميع الكلمات المنفردة بالتدوين وفي عرف النحويين على كتاب سيبويه. وفي عرف الأصوليين على أحد أركان الدين. وفي عرف المصنفين على طائفة من المسائل اعتبرت منفردة عما سواها. وأهل الكتاب الذين لهم كتاب منزل كالنصارى واليهود.

والكتابة مصدر وشاع استعمال الكتابة بمعنى تصوير اللفظ بحروف هجائية لأن فيه جمع صور الحروف وأشكالها واستعمال الكتاب في الحروف والكلمات المجموعة إما في اللفظ وإما في الخط يجعل المصدر بمعنى المفعول. والكتبة مصدر واكتابك كتابا تنسخه والكتبي بائع الكتب وحافظها. والمكتبة موضع وضع الكتب جمع مكاتب والمكتب معلم الكتابة.

انظر:

محيط المحيط لبطرس البستاني - المجلد الثاني - (مكتبة لبنان) بيروت - ١٩٧٠ م ١٣٨٦ هـ - ص ١٧٨٩، ص ١٧٩٠.

(٣) في «موسوعة لاروس» الفرنسية:

كلمة (Livre) في الفرنسية مشتقة من الكلمة اللاتينية (Liber) وهي مجموعة من الأوراق المطبوعة والمجمعة في (Volume) مجلد واحد أياً كان شكل التجليد. وهناك تعريف آخر بأنه مؤلف من النثر أو الشعر على شيء من التوسع والإسهاب. وتعريف بأنه فرع من المصنفات. والتعريف المجازي للكتاب بأنه مصدر من مصادر التعليم والثقافة، وعلى حد تعبير بسكال (Pascal) بأن الضمير أعظم كتاب في الأخلاق.

ونمة مسميات خاصة للكتاب مثل كتاب التدر (Livre du Destin) وهو كما تقول «موسوعة لاروس» كتاب متخيل يفترض أنه كتبت عليه جميع أحداث المستقبل. والكتاب الذهبي (Livre d'or) وهو كانت نقش عليه بحروف، من الذهب أسماء العائلات النبيلة في مدينة البندقية في القرون الوسطى. و (كتاب الموتى) الفرعوني (Livre des Morts) وهو عبارة عن طقوس الموتى، وكانوا يضعون نسخة منه في تابوت الميت.

Grand Larousse encyclopedique- tome sixieme- Libraire- Larousse- paris- 1962- Article (le livre)- P.

799.

=

(٤) في دائرة المعارف البريطانية:

بعض السمات الثابتة في الكتاب، الكى نصل إلى تعريف محدد له. وأبرز سمة للكتاب هي أنه يقصد به أن يكون وسيلة اتصال. ولقد كان هذا القصد هو الغرض من الكتاب في أشكاله المختلفة، منذ ألواح الطين البابلية ولقائف البردى المصرى، ثم الكتاب من الرق في العصور الوسطى، إلى الكتاب المطبوع على الورق في عالمنا المعاصر. ثم الميكروفيلم وغير ذلك. ويصدق هذا القصد على تنوع محتوى الكتاب، فمسرحيات «شكسبير» والمنشورات التافهة يستويان في السمة الرئيسية للكتاب بأنه وسيلة اتصال. والسمة الثانية هي أن الكتاب يستخدم الكتابة أو نظاماً آخر من الرموز المرئية مثل الصور أو (النوتات الموسيقية) لإيصال المعنى. والسمة الثالثة هي نشر الكتاب بمعنى توزيعه. وعلى ذلك فالكتاب - كما ترى دائرة المعارف البريطانية - رسالة على قدر كبير من الطول والإسهاب، كتبت بخط اليد أو طبعت وقصد بها الانتشار والتوزيع، وسجلت على مواد خفيفة لكنها قابلة للاستمرار والبقاء بدرجة توفر إمكانيات الحمل والنقل بسهولة نسبية. والغرض الرئيسى من الكتاب أن يحمل رسالة بين الناس. وهو بهذا المعنى يتعدى حدود الزمان والمكان ليعلن ويحفظ وينقل المعرفة.

ولقد عرفت منظمة (اليونسكو) الكتاب بأنه المطبوع غير الدورى الذى تصل عدد صفحاته إلى ٤٩ صفحة على الأقل غير الغلاف. ولكن هذا التعريف لا يعبر عن شيء، وإنما هو تحديد للأغراض الإحصائية. وللتفرقة إحصائياً بين الكتاب والكتيب والنشرة.

وقد يطلق الكتاب على كتاب بعينه فالقرآن كتاب الله الأشهر عند المسلمين، ونحن نعلم من كتب الله التوراة والإنجيل والصحف التي أنزلت على إبراهيم. والكتاب في عرف النحويين يطلق على كتاب سيبويه، وكتاب الموقى عند الفراعنة ما يجمع في سطورهِ الطقوس اللازمة للميت، وكانوا يضعونه في تابوت موتاهم. والكتاب الذهبى في مدينة البندقية في العصور الوسطى هو الكتاب الذى كانت تسجل فيه بحروف من الذهب أسماء العائلات النبيلة في ذلك الوقت. وعلى ضوء هذه التعريفات المختلفة نجد أنها تؤدي إلى فكرة محورية هي أن الكتاب وسيلة إعلام.

ترى دائرة المعارف البريطانية أنه لكى تعدد تعريف الكتاب فمن الضروري أن نبحث عن بعض السمات الثابتة في الكتاب لكى نصل إلى تعريف له. وأبرز سمة هي أن الكتاب قصد به أن يكون وسيلة اتصال. وقد كان هذا هو الغرض من الأشكال المختلفة التي نخسها الكتاب مثل ألواح الطين البابلية ولقائف البردى المصرى. ثم الكتاب في العصور الوسطى من الرق ثم الورق المطبوع المعاصر و (الميكروفيلم) وغير ذلك. ويصدق هذا أيضاً على التنوعات المختلفة في المحتوى ومسرحيات شكسبير التي نشرت عام ١٦٢٣، والمنشورات التافهة يستويان في تعريفنا للكتاب بأنه وسيلة اتصال. السمة الثابتة هي أن الكتاب يستخدم الكتابة أو نظاماً آخر من الرموز المرئية مثل الصور أو (النوتات) الموسيقية لإيصال المعنى. السمة الثالثة هي نشر الكتاب لتوزيعه. فعومد معبد من المعابد يحمل رسالة منحوتة عليه ليس كتاباً. وعلى العكس الملصقات التي يسهل حملها والتي يقصد منها جذب نظر المارين والعاشرين لا تعد أيضاً كتاباً. كذلك الوثائق الخاصة لا تعد كتاباً. وعلى ذلك فالكتاب هو رسالة على قدر كبير من الطول والإسهاب كتبت بخط اليد، أو طبعت وقصد بها الانتشار والتوزيع وسجلت على مواد خفيفة لكنها قابلة للبقاء والاستمرار بدرجة توفر إمكانيات الحمل والنقل بسهولة نسبية. والغرض الرئيسى من الكتاب أن يحمل رسالة بين الناس تتوقف على سعتين هما المقابلة للنقل والاستمرارية أو الدوام. والكتاب بهذا المعنى يتعدى حدود الزمان والمكان ليعلن وينشر ويحفظ وينقل المعرفة. وفي كل مجتمع مثقف نجد الكتب عتبت بحفظ ونشر المعرفة.

والقول بأن الكتاب وسيلة إعلام نتيجة منطقية لكافة تعريفات الكتاب، ونتيجة منطقية لتاريخ الكتاب في الوقت نفسه، والحاضر ومستقبله.

أى الكتب وسيلة إعلام؟

إن السؤال الجدير بالاهتمام هو: هل كل الكتب وسيلة إعلام؟ أم أن كتباً بعضها تعد وسيلة إعلام؟ مادامنا قد قررنا بأن الكتاب وسيلة إعلام فإن ما ينطبق على وسائل الإعلام ينطبق عليه. فالكتاب بصفة عامة وسيلة إعلام. وهذا القول يوازى القول بأن التلفزيون وسيلة إعلام، أو أن الصحيفة وسيلة إعلام. والبرنامج العلمي الشديد التخصص في التلفزيون - وإن حظى بجمهور قليل - لا يسقط عن التلفزيون صفته الإعلامية، والبرامج التعليمية في التلفزيون تعادل الكتاب المدرسى - في عالم نشر الكتب - في كثير من الوجوه. وما يقال عن التلفزيون يمكن تطبيقه على الصحف، فالمجلات المتخصصة الشديدة التخصص لم تخرج المجلات بوجه عام من صفتها الإعلامية.

نخلص من ذلك إلى القول بأن الكتاب جملة أو الكتاب بصفة عامة وسيلة إعلام، ينطبق عليه ما ينطبق على مثيله من الوسائل. وكلما كان الكتاب في الثقافة العامة وغير متخصص، كلما خاطب جمهوراً واسعاً، وكلما أوغل في التخصص كلما قل جمهوره. وقد يكون التخصص عاماً مثل كتب تربية الأطفال، أو الشعر. وقد يكون التخصص خاصاً مثل النقد المقارن أو جراحة الأنف. وعلى قدر درجة التخصص يقاس جمهور الكتاب. فكتب الهندسة والطب مثلاً عندما تناول العلم والنظريات العلمية والمعادلات تصبح كتباً علمية وحسب. ولكنها إذا تناولت الهندسة أو الطب مثلاً باعتبارها من المعارف العامة وباعتبارها زاداً ثقافياً إنسانياً، أو باعتبار ضرورات الحياة اليومية، أو الضرورات الاجتماعية فإنها تصبح كتباً في الثقافة العامة، وهكذا..

خصائص الكتاب:

لعل أهم ما يبين خصائص الكتاب باعتباره وسيلة إعلام هو إجابة السؤال المتعلق بهويته. ذلك السؤال: هل الكتاب صناعة أم رسالة؟

ولطالما أثير في تاريخ الدراسات الصحفية هذا السؤال التقليدى المعروف هل الصحافة رسالة أم صناعة؟ ولقد كانت إجابة هذا السؤال حتى القرن العشرين الميلادى فيها قولان مختلفان. القول الأول يرى أن الصحافة رسالة سامية يجب أن تترفع عن الريح وأن القائمين عليها هم رسل الإرشاد والتوعية للشعوب. والقول الثانى يرى أن الصحافة مجرد صناعة مثل غيرها من الصناعات، وأن هدفها الأول هو تحقيق الربح، بل إنها تملك وسيلة تحقيق الربح والنفوذ معا.

وفي القرن العشرين أصبح السؤال حول رسالة الصحافة وصناعة الصحافة ليس بالبساطة الأولى، ولم تعد الإجابة عن السؤال فيها قولان مختلفان، بل أصبحت الإجابة تحوى القولين معاً باعتبارها وجهين متلازمين ومتفاعلين. لأنه تبين أن الصحافة صناعة، ولكنها ذات طبيعة خاصة. لأن الجانب المعنوى مرتبط بالجانب المادى ارتباطاً عضوياً، فالمطبعة والورق والأحبار تعمل مع الفكر في كل يوم وفي كل عدد وهكذا الكتاب.

ويرى الدكتور سيد أبو النجا^(١) أن من يقول إن الكتاب رسالة كمن يقول إن النظافة من الإيمان. ومن يقول إنه صناعة كمن يقول إن النظافة ماء وصابون وتلاجة ومجار تحت الأرض. والصناعة الجيدة هي التي تجعل كتاباً يروج والصناعة السيئة هي التي تجعل مثيله يفشل. لأن مقومات السلعة الجيدة عندما تتوفر للكتاب من ورق جيد وطباعة أنيقة تحقق النجاح. وعندما يصبح مثيل هذا الكتاب مطبوعاً بأحرف مشوهة وحبر سيئ وتجليد رخيص لا سبيل أمامه غير الفشل والوبار. ويؤكد الدكتور أبو النجا على أن الكتاب سلعة كسائر السلع، لا يأخذ سبيله إلى الأسواق باعتباره رسالة وحسب، وإنما يشق طريقه باعتباره رسالة، ويقوماته الصناعية، وبسعره المنافس، وتسويقه الناجح وتمويله المدرس، وبالإعلان عنه في جميع نطاق الطلب عليه. والكتاب الذي لا يتمكن من بيع نسخة لا يتمكن بطبيعة الحال من إبلاغ رسالته. فإذا لم يحدث اللقاء بين المؤلف والقارئ فوق صفحات الكتاب فيالحية المؤلف فيما سطر من رأى، والحية الناشر فيما دفع من مال، والحية الطابع فيما أنجز من ملازم، والحية الموزع فيما بذل من جهد. كل هذا أصبح عبئاً لأن القراء لم يستفيدوا منه. إنه - على حد تعبير الدكتور أبو النجا - وليمة أعرض عنها الطاعمون!

وإذا كانت الإجابة عن هوية الكتاب توضح لنا شيئاً من خصائصه، فإن موقع الكتاب بين حلقات الإعلام أو الاتصال تجلي لنا من خصائصه جانباً ثانياً، فأين يقع الكتاب بين دوائر الاتصال الشخصي أو المباشر، ثم الاتصال الجماهيري، ثم الاتصال الحضاري؟

نستطيع القول بأن الكتاب يجمع بين فضائل وميالة الاتصال الجماهيري بحكم الأعداد المطبوعة منه، وبين فضائل الاتصال المباشر لأن القارئ لا بد وأن يخلو للكتاب وأن يتهيأ للقراءة. والكتاب في دائرة الاتصال الحضاري يحظى بموقع فريد. وتقف بعض الكتب كأنها علامات بارزة في نقل التراث الحضاري من جيل إلى جيل ومن حضارة إلى أخرى. ومثال ذلك كتاب (أقوال الآباء) الفرعوني الأصل والمجهول المؤلف، والذي فقد أصله الهيروغلوفى، وترجم من اللغة اليونانية إلى اللاتينية في القرن الخامس الميلادي، ثم إلى عدد من اللغات القديمة في ظل الكنيسة، وكتاب وصف مصر الذي وضعه علماء الحملة الفرنسية، وكتاب الأمير لمكيافلي، وكتاب ألف ليلة وليلة، وكتاب الإلياذة، وكتاب رأس المال لكارل ماركس، وكتاب كليلة ودمنة.

وتمثل الترجمة الجانب الأساسي في مجال الكتاب باعتباره وميالة اتصال حضاري. ومحدثنا التاريخ عن اهتمام العرب بترجمة أهم الكتب اليونانية إلى اللغة العربية. وأن حركة الترجمة قد بدأت مع الدولة الأموية ثم بلغت شأناً كبيراً في الدولة العباسية، وبخاصة في عصر المأمون الذي اهتم بالترجمة اهتماماً خاصاً، وأنفق عليها بسخاء.

ثم جاء الدور على أوروبا في نهضتها الحديثة لترجم كتب العرب إلى اللاتينية، ولترجم الكتب اليونانية من النص العربي. ومن هذا الباب الواسع كان الكتاب سفير الحضارات. لقد دخلت العلوم أوروبا من أسبانيا وصقلية وإيطاليا، وذلك بإنشاء مكتب للمترجمين في طليطلة، بدأ منذ سنة ١١٣٠م ينقل أهم كتب العرب إلى اللغة اللاتينية، تحت رعاية رئيس الأساقفة «رعون»، وكللت أعماله في الترجمة

بالنجاح، ولم يتوان الغرب في أمر هذه الترجمة في القرن الثاني عشر والقرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر من الميلاد، ولم يقتصر الغرب على ترجمة مؤلفات علماء العرب كالرازي وابن سينا وابن رشد وغيرهم إلى اللغة اللاتينية، بل نقلت إليها أيضا كتب علماء اليونان التي كان المسلمون قد ترجموها إلى لغتهم، كتب جالينوس وأبقراط وأفلاطون وأرسطو وأقليدس وأرشميدس وبطليموس، فزاد عدد ما ترجم من كتب العرب إلى اللغة اللاتينية على ثلاثمائة كتاب. والحق أن القرون الوسطى لم تعرف كتب العالم اليوناني القديم إلا من ترجمتها إلى اللغة العربية، وبفضل هذه الترجمة أطلعت أوروبا على كتب اليونان التي ضاع أصلها اليوناني.

وفي عالمنا المعاصر تمثل ترجمة الكتب في أغلبها اتجاهاً ذا تدفق واحد، من الحضارة الأوربية المعاصرة إلى العالم الثالث. وقليل من كتب العالم الثالث التي تحظى بالترجمة إلى إحدى اللغات الأوربية. لذلك كانت ضمن مقترحات مصر في مؤتمر السياسات الثقافية الذي عقد في المكسيك خلال يوليو ١٩٨٢ تحت مظلة منظمة «اليونسكو» اقتراح بإنشاء مركز عالمي للترجمة يتبع منظمة «اليونسكو»، تكون مهمته تلقي ما ترشحه الهيئات الثقافية في دول العالم الثالث من أعمال فكرية وأدبية وفنية وترجمته في وقت واحد إلى اللغات الأوربية، وطبعه ونشره وتوزيعه في كل الشعوب التي تتكلم هذه اللغات، مع الالتزام بكل الحقوق الخاصة بالمؤلف ودار النشر الأولى، حتى يمكن تعريف المثقف العالمي بإنتاج مثقفي دول العالم الثالث.

كذلك من الكتب التي تذكر في وسائل الاتصال الحضارى إنتاج المستشرقين، والمعاجم المزروجة اللغة.

وإذا كانت الدوائر الإعلامية من شخصى إلى جماهيرى إلى حضارى قد أسهمت في إجلاء خصائص الكتاب باعتباره وسيلة إعلام، فإن مركزاً آخر لدوائر الإعلام من الناحية الجغرافية يجلب لنا خصائص الكتاب. فأين يقع الكتاب في دوائر الإعلام المحلى أو الإقليمى، ثم الوطنى أو القومى، ثم الدولى أو العالمى؟.

إن الكتاب بصفة عامة لا بد وأن يعكس الثقافة التي ينتمى إليها. إن الاطلاع على كتاب مدرسى في قواعد اللغة العربية والتعبير في الأزهر المعاصر، أو في مركز من مراكز تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها يختلف ثقافياً عن كتاب مدرسى في قواعد اللغة الفرنسية والتعبير في مدرسة فرنسية، أو في مركز ثقافى فرنسى في قارات العالم. وإذا كان المثل الذي نضربه بقواعد اللغة فبا بالذ بالآدب مثلاً. إن الكتاب صورة من الثقافة والبيئة التي ينتمى إليها. ولكن ذلك لا يقف عائقاً أمام انتشار الكتاب من دائرة الإعلام المحلى أو الإقليمى إلى دائرة الإعلام الوطنى أو القومى، ثم إلى دائرة الإعلام الدولى. بل إن الطعم الخاص والمذاق الخاص للكتاب، باعتباره انعكاساً لثقافة ينتمى إليها وانعكاساً لبيئة نبت فيها وخرج منها يعد عاملاً هاماً في انتشاره دولياً، إذا تحققت له شروط النجاح.

وتحاول الدول من جانب آخر أن تجعل من كتبها وسيلة يمكن الاعتماد عليها في مجال الإعلام الدولى. لقد أدركت الجهات المسئولة عن الإعلام الدولى والإعلام الخارجى في وقت مبكر أهمية الكتاب باعتباره وسيلة هامة للإعلام الدولى أو الإعلام الخارجى. لقد كان من بين أول المشروعات الإعلامية التي نظمتها وزارة الخارجية الأمريكية بالتعاون مع مؤسسات غير رسمية إصدار كتاب في

عام ١٩٤٣ حول تاريخ الولايات المتحدة^(٦). وأشرف على إصداره مجموعة من الباحثين في جامعة (برنستون). وتم نشره في العالم العربي.

ولقد قامت وزارة الخارجية الأمريكية في أعقاب الحرب العالمية الثانية بتزويد العديد من المكتبات العربية العامة بمجموعات من الكتب الأمريكية. وكان ذلك في نطاق النشاط الإعلامي المباشر وغير المباشر. وقد استقبلت المكتبات العربية الهبات الأمريكية من الكتب بالترحاب، وبخاصة أنها كانت تفتقر إلى الكتب الغربية التي انقطعت بسبب ظروف الحرب.

وفي عام ١٩٧٧ طورت وكالة المعلومات الأمريكية التي أصبح اسمها وكالة الاتصال الدولي الأمريكية USICA نشاطها وذلك باستئناف برنامج ترجمة الكتب الأمريكية للغة العربية الذي كان قد توقف في أعقاب حرب ١٩٦٧، ثم بإنشاء مكاتب بعضها تابع للمؤسسات التعليمية الأمريكية مثل مكتبة الجامعة الأمريكية في القاهرة وفي بيروت.

ويوضح تقرير لجنة مشكلة لبحث مشكلات الإعلام العالمي في نطاق «اليونسكو» (١٩٧٧) أن الكتب تعتبر وسيلة إعلام جماهيرية أولى، فبرغم تطور المنافسة بعد ظهور أشكال جديدة للاتصال بالجماهير ظل عدد القراء في تزايد مستمر. فمن عام ١٩٥٥ إلى عام ١٩٧٦ زاد إنتاج الكتب في العالم زيادة مطردة إلى أن تضاعف، هذا إذا ما أخذنا في الاعتبار عدد عناوين الكتب الصادرة في كل سنة، أما إذا اعتبرنا عدد النسخ فإن الرقم يصبح ثلاثة أضعاف ما كان من قبل، وفي منتصف العقد الثامن من القرن العشرين أصبح يوجد في الأسواق أكثر من ٥٩٠٠٠٠ كتاب طبعت منها حوالي ثمانية مليارات من النسخ، وكان من أهم أسباب هذا التزايد هو التغير الجذري الذي طرأ بعد الحرب العالمية الثانية على الوسائل الفنية لإنتاج وتوزيع الكتب، وهذا ما يبينه بشكل خاص رواج سوق كتب الجيب، ولكن يوجد في هذا المجال كما في الميادين الإعلامية الأخرى، فروق أساسية وعميقة يدل عليها الجدول التالي لإنتاج الكتب عام (١٩٧٦):

إن صناعة الكتب تشكل جزءاً من القطاع العام والخاص حسب النظام السياسي والاقتصادي للبلد. وفي كثير من البلاد تدخل هذه الصناعة ضمن النشاط الخاص، وإن وجد إلى جانبها نشاط حكومي متطور في هذا المجال، ومثال ذلك، في الولايات المتحدة: (Government Printing Office) وفي المملكة المتحدة (Her Majesty Instationery Office) أما في البلاد الاشتراكية فتشكل صناعة الكتب جزءاً من الاقتصاد الوطني المخطط، هذا وقد طبق عدد كبير من البلاد النامية نظاماً مختلطاً وذلك لسببين:

(أ) عجز النظام الخاص عن الوفاء بالاحتياجات مما يجبر الحكومات على أن تتولى بنفسها أمر النشر.

(ب) الأهمية القصوى لإنتاج الكتب المدرسية.

(٦) د. سليم عبد الأحد - النشاط الإعلامي الأمريكي الرسمي في العالم العربي - شئون عربية - العدد ١٧.

النسبة المئوية للتوزيع			عدد الكتب بالآلاف	المناطق الكبرى
السكان	إنتاج الكتب	لكل مليون من السكان		
١٠٠	١٠٠	١٨٦	٥٩١	العالم
١٣,٠٠	١,٩	٢٦	١١	أفريقيا (بما فيها البلاد العربية)
٤٥,٢	١٦,٩	٧٠	١٠٠	آسيا (بما فيها البلاد العربية)
٧,٥	١٥,٤	٣٨٢	٩١	أمريكا الشمالية
١٠,٥	٥,٢	٩٣	٣٦	أمريكا اللاتينية
١٥,٠	٤٥,٥	٥٦٥	٢٦٩	أوروبا
٠,٧	٠,٨	٢٢٧	٥	أوقيانيا
٨,١	١٤,٢	٣٢٦	٨٤	الاتحاد السوفيتي
٤,٥	١,٠	٤٠	٦	البلاد العربية
٣٥,٦	٨٣,١	٤٣٤	٤٩١	البلاد المتقدمة
٦٤,٤	١٦,٩	٤٩	١٠٠	البلاد النامية

وقد دفع الاقتصاد الحديث صناعة النشر إلى الانتقال من الطور الحرفي إلى طور الإنتاج على نطاق واسع. وقد أدى هذا التطور بكثير من الناشرين إلى الاندماج في شركات إعلامية أو مالية، مما أدى إلى نتائج سياسية وثقافية هامة على الصعيد الدولي.

وكانت الطباعة أول وسيلة إعلام جماهيرية صالحة للتصدير، وساعد على ذلك نشاط الناشرين الأوربيين في خلق الأسواق، ثم تأسيس الفروع في المستعمرات القديمة. وفي عام ١٩٧٥ بلغ حجم الصادرات البريطانية ١٣٣ مليون جنيه استرليني أي ما يعادل ٤٠٪ من مجموع مبيعات أصحاب دور النشر والمكتبات البريطانيين. أما صادرات الولايات المتحدة من الكتب فقد بلغت حوالي ٣٠٠ مليون دولار في عام ١٩٧٦ وهي تزداد بمعدل سنوي قدره ١٠٪. وقد شكلت الكتب المدرسية من أصل هذه الصادرات ١٩٪ في المملكة المتحدة ٣٠٪ في الولايات المتحدة الأمريكية بينما بلغت نسبة الكتب العلمية ٢٦٪ والتكنولوجية ١٦٪. وكان من شأن تطور أسواق التصدير هذه وبخاصة في مجال التعليم حيث سبب نمو النظم المدرسية ازدياداً في الطلب على الكتب وغيرها من المواد التعليمية والمواد السمعية البصرية، كما شجع أصحاب الشركات على توسيع وتنويع أسواقهم في مجال وسائل الإعلام الالكترونية. وشرع الناشر كذلك في ممارسة أنشطة تتعلق بالمجلات التلفزيونية والأفلام وغيرها من المواد التعليمية بالإضافة إلى نشر الكتب. وقد ساعد هذا الدمج على تطوير الطباعة إلى صناعة دولية. وبصورة عامة فقد ساعد هذا على ازدهار العمليات عبر الوطنية فيما يتعلق بوسائل الإعلام.

والمشكلة الأساسية التي يواجهها الكتاب على المستوى الدولى تتلخص فى أن العالم يشهد اليوم تناقضا بين زيادة إنتاج الكتب وبين حدة الجوع للكتاب فى البلدان النامية. ويقدر بعض الخبراء الدوليين نسبة الكتب المدرسية من إجمالى الكتب المطبوعة فى العالم الثالث بما يتراوح بين ٨٠% إلى ٩٠%.

ومن أبرز خصائص الكتاب باعتباره وسيلة إعلام أنه ينتمى إلى الإعلام المكتوب أى المطبوع. وهذه السمة التى تتعلق بالخصائص الحسية لوسيلة الإعلام لها أهمية بالغة بالنسبة للكتاب. فإذا كان الخبر القصير مثلا يمكن سماعه فى الراديو فلا يهدر من فائده كثيرًا عن قراءته فى الصحيفة اليومية، فالكتاب تستحيل إذاعته فى (الراديو) دون أن يهدر معظم دمه. وتتميز الكلمة المكتوبة أى المطبوعة بتحررها من دائرة الاتصال بالتواجد. فالكلمة المنطوقة تتطلب إنسانًا حاضرًا. هذا الإنسان قبل الراديو كان لابد من تواجده قريبًا من المتكلم، وأصبح بعد الراديو والتليفزيون لابد من تواجده وقت إذاعة الرسالة الإعلامية. أما الكلمة المكتوبة فإنها تتوجه إلى الشخص الغائب وتحقق هدفها الذى تحققه مع الشخص الحاضر.

يبقى لنا بعد ذلك فى إجمالى خصائص الكتاب باعتباره وسيلة إعلام موقع الكتاب فى أطراف العملية الإعلامية الأخرى غير الوسيلة، وهى المصدر والمستقبل والرسالة والتأثير ورد الفعل.

المصدر (Source): وهو هنا المؤلف، وفى العرف العام يكون للكتاب مؤلف معلوم، ولكن العصر الحديث شهد اشتراك عدة مؤلفين فى كتاب واحد، كما شهد الكتاب الذى يعده مركز أبحاث أو هيئة، دون تخصيص مؤلف بعينه. والمؤلف والكتاب لا يفصلان بل يمكننا القول بأن المؤلف هو الكتاب وأن الكتاب هو المؤلف. وهذا موضوع الفصل الثانى برمه.

المستقبل (Receiver): وهو هنا القارئ. سواء كان ناقدًا أو باحثًا أو قارئًا عاديًا. وقارئ الكتاب بصفة عامة يمتاز بالبحث عن المضمون الجاد. فضلًا عن إجادته للقراءة بطبيعة الحال. وغالبًا ما يكون واسع الثقافة، لأن الكتاب يمتاز عادة بالعمق والدراسة بين وسائل الإعلام المختلفة. ومن الطريف أن الرءاء ليس سببًا فى إقبال الناس على شراء الكتب. فقد تزهد المجتمعات المترفة فى الكتاب. وتلجأ إلى وسائل أكثر ترفيهاً. وفى إحدى البلدان البترولية قال لى ناشر وأديب ناشئ فى معرض مشكلة توزيع الكتاب: (إن أبناءنا يدفع الواحد منهم (كذا) عند الحلاق لتصفيف شعر رأسه، ويبخل أن يدفع ربع ذلك لشراء كتاب يشذب ما فى رأسه.!).

وقد تكون هناك سمات خاصة للثقافة الوطنية فى مجتمع من المجتمعات تجعل للكتاب أول نوع من الكتب وضعًا أكثر انتشاراً. فالكتاب الإسلامى يلقى رواجًا نسبيًا فى المملكة العربية السعودية أكثر من غيره، ومن الشائع بين كثير من المثقفين العرب أن العراقيين من أكثر العرب قراءة للشعر، وأن المصريين من أكثر العرب قراءة للقصة الطويلة. وإذا تأملنا تحليلًا أمريكياً لازدهار الكتاب فى أوروبا عنه فى أمريكا فإننا نجد عمقًا تاريخيًا لهذه الظاهرة. ماذا يقول التحليل الأمريكى؟^(٧) يقول: إنه مما

(٧) وليام ل. ريفرز وآخرون - وسائل الإعلام والمجتمع الحديث (ترجمة د. إبراهيم إمام) دار المعرفة بالقاهرة - ١٩٧٥

يلفت نظر الأجانب المولعين بالملاحظة أن الأمريكيين ليسوا قراء كتب. وهناك شيء من الصدق في تعميمهم هذا. فبينما نجد أن الأوربيين قراء كتب، فإن الأمريكيين يتميزون بقراءة المجلات. وفي الصحف اليومية الأمريكية البالغ عددها ١٧٦١ صحيفة حوالي ١٢ صحيفة فقط تصدر ملاحق منتظمة لعرض الكتب. وقد فسر بعض مؤرخي الكتب الاختلاف بين الاتجاهات التي يتخذها الأوربيون والاتجاهات التي يتخذها الأمريكيون نحو الكتب، بأنه اختلاف يعود إلى الأغراض التي استخدمت الطباعة من أجلها أصلاً في القارتين. فيذكر أن الطباعة في أوروبا، قد بدأت في مجتمعات استقرت طويلاً باعتبارها وسيلة سهلة وزهيدة الثمن لنشر التراث الأدبي المتراكم من كنوز المخطوطات في العالم القديم وعالم القرون الوسطى. أما في أمريكا، فقد أصبحت الطباعة قوة هامة للتميز والتوسع غرباً. ويضيف «لقد غزت المطبعة الأوربية الفكر أساساً، أما المطبعة الأمريكية فقد غزت العمل أساساً. وفي أوروبا كان معنى الطباعة منذ البداية هو الكتب، أما في أمريكا فقد كان معنى الطباعة منذ البداية تقريباً هو الصحف».

الرسالة (Message): وهي هنا ما يتعلق بمضمون الكتاب. إن الأسباب والاعتبارات والسعات التي شكلت لنا حيثيات الحكم على الكتاب بأنه وسيلة إعلام، تنطبق كلها على عنصر الرسالة من عناصر العملية الإعلامية في مجال الكتب. وتحديد الإعلاميين لمفهوم الرسالة بأنها جملة المعلومات والأفكار والمعاني والتصورات التي يريد المصدر نقلها إلى المستقبل.. هذا التحديد يمثل تمثيلاً واضحاً في الكتاب باعتباره وسيلة إعلام. وما تتعرض له الرسائل الإعلامية ممن يسمون بحراس البوابات، تتعرض له الكتاب، في بعض الأحيان، ولكن بصورة أقل كثيراً مما يتعرض له الرسائل الإعلامية في الصحف والراديو والتلفزيون. وذلك لعدة أسباب:

أولها: سيطرة المؤلف على كتابه واعتداده بذلك.

وثانيها: قصر خطوط شبكات الانتقال بين مؤلف الكتاب وقارئ الكتاب عنها في الانتقال بين المحرر وبين المستمع أو المشاهد أو قارئ الجريدة أو المجلة.

وثالثها: لأن الاعتبارات الخارجية عن المؤلف وفكرته التي يضعها المؤلف في حسابه وهو يؤلف كتاباً أقل مثلاً من الاعتبارات الخارجية التي يضعها كاتب «السيناريو» في حسابه وهو يكتب للسينما أو التلفزيون.

التأثير (Effects): ورد الفعل (Feed Back). إن هذين العنصرين من عناصر العملية الإعلامية يكاد فعلها أن يصل إلى حد الاندماج بالنسبة للكتاب. فالتأثير ورد الفعل لدى ناقدى الكتب أمراً واحداً، وهما يقتربان من الأمر الواحد لدى القارئ أيضاً. والتأثير يتميز بالاستمرار بالنسبة للكتاب أكثر من غيره من وسائل الإعلام الأخرى. وتحضرنى واقعة ليست لها دلالة شخصية ولكنها ذات دلالة موضوعية، في تأثير الكتاب على القارئ، وبخاصة على الشباب الباكر. كنت أقرأ الجزء الأول من كتاب الأيام لطف حسين وأنا بين الحادية عشر والثانية عشر من عمري، وأنا مولع بالأدب ويطه حسين، فإذا به يذكر العسل - الأسود كطعام له أيام كان طالباً بالأزهر ويحاطب ولديه بقوله لا قدر لكما أن تريا العسل الأسود. خطرت في نفسى أشياء - لا أتبينها - عن العسل الأسود وأقلعت عنه، فلم أعد إليه إلا بعد أن تخرجت في الجامعة، وزال أثر أفكار طه حسين عني، ورغم أن حبي له لم يزل.

ويرى «أدوين أميري»، «وقيليب هـ. أولت»^(٨) أن الكتب وسيلة إعلام ذات أثر بالغ في حياتنا جميعاً. إنها دليتنا على الماضي، وهي تساعدنا لفهم أنفسنا، وفهم العالم الذي نعيش فيه، وهي تمدنا بالعون لنرسم خطانا للمستقبل بطريقة أفضل. والكتب هي أداة تعليمنا الرئيسية. والكتب وسيلة إمتاع الناس في كافة أعمارهم.

وحول أثر الكتاب يقول أنيس منصور^(٩): «أعلم مقدماً أن من الممكن أن يقرأ ألف شخص كتاباً واحداً، ويكون هناك ألف أثر مختلف.. ولكن شخصاً واحداً يقرأ هذا الكتاب ويخرج منه على الناس بمعنى لم يحظر لأحد على بال.. فما أكثر الذين قرءوا كتاب الأمير للفيلسوف الإيطالي (ماكيافللي).. ولكن موسوليني وحده الذي استطاع أن يبني عليه فلسفته الفاشية..».

تاريخ الكتاب:

إذا سألنا: ما هو أول كتاب عرفته البشرية؟ - ونحن نقصد بالكتاب الكتاب البشري بطبيعة الحال - نجد أن الإجابة المباشرة شبه مستحيلة. وذلك لعدة أسباب:

أولها: أن الحفائر وعلماء الآثار لم يقدموا شهادة وافية في ذلك حتى الآن.

ثانيها: أن وسائل الإعلام بصفة عامة باعتبار ظهورها ظاهرة اجتماعية لا يمكن في نشأتها التحديد القاطع، حتى في ظل ظروف التسجيل، وفي ظل حضارة فيها صحافة تفتح عيونها كعيون الصقور. أن الاختلاف حول من بدأ الإرسال الإذاعي في أواخر العقد الثاني من القرن العشرين يشمل معظم القارة الأوربية من جهة وأمريكا من جهة ثانية. ومن قبل، في تاريخ الصحافة لا نستطيع تحديد أول كراسة إخبارية صدرت في أوروبا، حيث عصر الصحف المنسوخة باليد.

إذا أضفنا إلى كل ذلك أن الكتاب أول وسيلة اتصال مكتوبة. وأن تاريخه يعود إلى أقدم عصور التاريخ، أمكننا أناندرك استحالة الإجابة عن السؤال إجابة مباشرة حاسمة. ولكن البحث في تاريخ الكتاب يقودنا إلى تحديد ملامح مضمون الكتاب أي ملامح مضامين الكتب في طورها التاريخي الأول.

وبعض الذين أرخوا للكتاب ذهبوا مذاهب طريفة في نشأة الكتب، فقالوا^(١٠) بأنها نشأة تختلط مع نشأة اللغة من ناحية، ومع نشأة الفن من ناحية أخرى. وأن ما رسمه الإنسان من صور على الفخار أو على جدران الكهوف تمثل كتب الصور، وأن القصص المصورة كانت صوراً على الخشب أو جلود البقر تحكى حكاية أو أسطورة. ثم كان الكتاب الشفاهي، حيث كانت المشافهة هي الوسيلة الوحيدة لنقل الأفكار. (والإلياذة) و(الأوديسة) وغيرها من المؤلفات أنشدتها الشعراء المغنون قبل أن تدون بوقت طويل. وبعد اختراع الكتابة بدأ الكتاب المدون منسوخاً. وظل كذلك حتى اختراع المطبعة في القرن الخامس عشر الميلادي. وغالباً ما يتحدث المؤرخون عن المادة التي سجل عليها الكتاب من حجر أو

(٨) Edwin Emery, Phillip H. Ault, Warren K. Agee- Introduction to Mass Communication- (٨) (Second edition)- Dodd, Mead Company, Inc- New York Toronto- 1968 p. 273.

(٩) أنيس منصور - افتتاحية مجلة أكتوبر - بتاريخ ١٩٨١/١٠/٤ م.

(١٠) إيريك دي جروليب - تاريخ الكتاب (ترجمة د. خليل صابات) مكتبة نهضة مصر ومطبعتها - القاهرة - (بدون تاريخ).

صلصال أو فغار ثم جلود وبرديات وحرير ثم ورق وهم يتحدثون عن تاريخ الكتاب. أو يتحدثون عن نشأة المكتبات في الحضارات القديمة والعصور الوسطى ثم العصر الحديث باعتبار أن ذلك أيضا هو تاريخ الكتاب.

أما محتوى الكتب فإن الغموض يكتنف جوانبها كثيرا في تاريخ نشأة الكتب. وبعض مؤرخي المكتبات^(١١) وهم يعرضون لتاريخ المكتبات في عصورها الوسطى يجذروننا عند استعمال كلمة كتب في تلك العصور، فليس المقصود بها أن تكون الكتب التي نراها الآن تبحث الموضوع من جميع جوانبه، وبشيء من التفصيل. ولكن كتب تلك الأزمان كانت تحوى رسائل صغيرة تبحث في موضوع معين، أو أمالي مختصرة. أو ملاحظات. وبعض علماء الآثار المصرية ينظرون إلى أوراق «البردى» التي خلفها الفراعنة نظرة أسف. لأن الكثير منها - في رأيهم - لا يعود على الباحثين بفائدة تذكر عن الحياة المصرية القديمة، لأن ما تضمنه الكثير من أوراق البردى لا يبدو أن يكون نصوصا سحرية أو دينية. «وكتاب الموق» المشهور في التاريخ الفرعوني لم يطلق عليه أصحابه اسم «كتاب»، وإنما اصطلح علماء الآثار على إطلاق هذه التسمية على قرطيس أو لفائف البردى التي تكتب فيها نصوص دينية، كان الغرض منها أن تكون حرزا للميت تقيه أهوال الآخرة. وهى نصوص متطورة لما كان يكتب قبلها على «الأهرامات» ثم على «التوابيت». وما «كتاب الموق» إلا صورة متطورة تكتب على لفائف البردى وتوضع مع الميت في التابوت.

وإذا مضينا مع أوراق «البردى» التي خلفها الفراعنة فإن بعض علماء الآثار يرى ما يوجد في بعضها من أدب دينوى لا يتعدى الدائرة الضيقة للمدرسة وقد قصد به حض الطلبة (الكتبة) من الشباب على الفضيلة وحب العلم. وما تقصه علينا هذه الكتب (أوراق البردى) من الحظ الحسن الذى يناله الموظفون المتعلمون. والحظ السيء الذى يصيب غيرهم من الطبقات.

ويؤكد معظم الأثريين المصريين اهتمام المصريين القدماء بالتعليم، وحضهم أبنائهم عليه. ويسبب عمق الحياة الدينية من جانب، والاهتمام بالتعليم من جانب آخر كانت كثرة النصوص الدينية والتربوية فيها خلفه الفراعنة من برديات. ولكن ذلك لم يمنع أو يحل دون أدب فرعونى خالص. فالدكتور جمال^(١٢) مختار يؤكد أن المصريين القدماء تركوا ألوانا مختلفة من الفن القصصى الذى يمثل حياتهم، وقصصا خرافية قصد بها مؤلفها الموعظة. ويضرب أمثلة بأربعة نماذج قصصية. من أهمها وأشهرها «قصص أولاد خوفو» وقد كتب المصريون القدماء تلك القصص بعد أيام خوفو بعشرة قرون ونسبوا حوادثها إليه، وهى لا تعدو أن تصور لنا لونا من ألوان الترف والرفاهية الذى كان يشيع في حياة القصور يومئذ.

تصور القصة «خوفو» وقد جلس في أحد أوراق العصر ومن حوله أبنائه الأبرار ينقلون إليه بعض ما يعرفون من أنباء الدنيا. ويقصون عليه ما يسلية، ويخفف عن نفسه هموم الملك وأعبائه. ويبدأ أكبر

(١١) د. محمد ماهر حمادة - المكتبات في الإسلام - نشأتها وتطورها ومصادرنا - (الطبعة الثانية) - مؤسسة الرسالة - بيروت ١٩٧٨ - ص ٤٦.

(١٢) د. جمال مختار - محاضرات في تاريخ مصر الفروصونية - كلية الآداب - جامعة الرياض - انعام الدراسى ١٩٧٩ - ١٩٨٠ م.

الأمراء بتلك القصة التي وقعت حوادثها أيام أحد أسلافه من الملوك. كان من عادته أن يعرج على كاهن ساحر فيتحدث إليه بعض الوقت. وكانت من تحت هذا الكاهن زوج تخونه مع رجل من أهل المدينة. ولما انتهى خبر ذلك إلى زوجها ثارت في نفسه روح الانتقام. فصور من الطين دمية تمساح ثم تلا عليها من تعاويذ السحر ما أغراها بذلك الرجل حين نزل إلى غدِير ليستحم فيه، هنالك أمسك به التمساح ليستقر به تحت الماء سبعة أيام كاملة. وطلب الكاهن من فرعون أن يصحبه ليرى معه أمراً عجيباً. ولما بلغا ضفة الغدير نادى الكاهن على التمساح فخرج يجير الشاب. وهناك ارتاع فرعون، ولكنه حين تبين أمر القصة، أمر الكاهن أن يوحى إلى التمساح أن يفتك بالرجل، ثم أمر بزوجة الكاهن الحائنة فحرقته.

ثم جاء دور ناي الأبناء فقص على فرعون القصة الثانية التي وقعت حوادثها أيام الملك «سنفرو» والد «خوفو». لقد كان «سنفرو» ذات يوم محزون النفس، مكتئب القلب، فأقترح عليه كبير كهنته، وكان عالماً بالسحر، أن يختار بعض جوارى القصر ليجدفن له في زورق يسبح به على الماء بعض الوقت. وراقت الفكرة فرعون فنفذها على الفور، وأخذت الجوارى يجدفن، وأخذ الزورق يسير، وتسللت البهجة إلى نفس فرعون. غير أن الجوارى أمسكن فجأة عن التجديف، وتلفت فرعون يسأل عن سر ذلك، فعلم أن كبيرتهن تعتقد أن حليها سقطت في الماء، وتصر على استرجاع حليها تلك. عندئذ أرسل فرعون في طلب كاهنه ليدير له الأمر فلما قص عليه القصة، تلا الكاهن على الماء «تميمة..» انشقت لها حتى ظهرت الحلية مستقرة في قاع الغدير، فأخذها ثمناولها الفتاة، ثم تلا على الماء «تميمة» أخرى فأعادته إلى سيرته الأولى.

أما ثالث الأمراء فقد حدث «خوفو» عن ساحر يعيش في زمانه، يدعى «ردى» وكان قد نيف على المائة بعشرة أعوام، وكان من عجائب سحره أن يعيد الرأس المفصول إلى مكانه، فبعث «خوفو» الأمير إلى بلدة الساحر فأحضره معه إلى القصر. وقد عاجل فرعون الساحر بالسؤال عن إعادة الرأس المفصول إلى مكانه. فأجاب أنه يستطيع ذلك، فجيء بأوزة وفصل رأسها فوضعه في طرف من مكان ووضع جسمها في الطرف الآخر، وقرأ الساحر «تميمته»، وبدأ الرأس يقترب من الجسد حتى اتصل به، فإذا هو مستقر في مكانه، وإذا بالأوزة حيث تصيح. ثم كرر الساحر نفسه نفس الشيء على ثور أحضر إليه. وبعد أن انتهى الساحر من ذلك، أخبر الملك بأن أسرته سوف تفقد العرش الذي سيجلس عليه أحد الكهنة، ولكن ذلك الأمر لن يتم إلا بعد تولى ابن الملك وحفيده الملك.

وهكذا ترىنا مثل هذه القصص صوراً من حياة القصر في ذلك الوقت. ولكنها تحمل إلينا شيئاً آخر أهم من كل ذلك، وهو تلك الألوان من خلق الناس ومن تفكيرهم ومن عاداتهم وشريعتهم، في ذلك العهد البعيد من عهود مصر.

ومن القطع الأدبية المشهورة تلك القصة المعروفة باسم «قصة الفلاح الفصيح»، وهي ترجع إلى عهد الأسرة العاشرة. وتتضمن هذه القصة شكوى فلاح نزل من وادي النطرون في الغرب من الدلتا، بحمير له تحمل من الملح ما جاء به ليتجر فيه، حتى إذا ما كان في بعض الطريق عدا عليه ثرى مر بجانب أرضه، فطمع فيما يملكه الفلاح وسلبه حميره، بعد أن أوسعه ضرباً. وذهب الفلاح إلى الحاكم يشكو إليه أمره، وتمكن من أن يثير إعجابه ببلاغته في شكواه، حتى لقد أبلغ الحاكم أمر هذه الشكوى

إلى فرعون الذى أمره أن لا يبيت فيها ليضطر الفلاح إلى المزيد من هذه الشكايات يأمر فرعون برد حد الفلاح إليه ويأمر بمعاينة ظالمه. ويقول الدكتور جمال مختار إن القصة آية في البلاغة، وأسلوب الشكوى رائع أخاذ، فيه كثير من التورية، وإن الصور التى عرضها الفلاح لمظهر صادق لما يضطرب يومئذ في نفوس الناس (أيام العصر المتوسط الأول) من ضيق بحال البلاد وتيرم بالفوضى التى سادت حياتهم.

أما قصة سنوهى: وهى من القصص الواقعية التى تلقى ضوءاً على الحوادث التى جرت في مطلع الأسرة الثانية عشرة. وقد بدأت القصة بخبر وفاة الملك (أمنمحات الأول) مؤسس الأسرة الثانية عشرة، بينما كان جيشه يحارب في الصحراء الليبية، يقوده ولى عهده (سنوسرت)، وكان سنوهى من رجال ذلك الجيش، فلما بلغه خبر وفاة فرعون قرر الهرب على القور لأن سنوهى كان أيضاً من أعداء الملك الجديد فأثر الفرار خشية على نفسه. فلقد دبرت في أواخر حكم أمنمحات الأول مؤامرات لقتله. ولإحلال سنوسرت على العرش، ويبدو أن سنوهى من الحزب المناوئ لسنوسرت. سار سنوهى مشرقاً حتى وصل إلى صحراء العريش، وظل ينتقل من مكان إلى مكان حتى استقر به المقام عند أحد تسيوخ البدو في فلسطين، وأغراه الشيخ بالإقامة معه، وزوجه من كبرى بناته، وأقطعته خير أراضيها. على أن حب الشيخ لسنوهى قد ملأ قلوب الطامعين من جيرانه غيرة وحقدًا، وإذا بقى من قتيان القبائل كان بطلاً متقطع النظير مرهوب الجانب يقصد إلى سنوهى ويطلبه للنزال، وحين التقى الخصمان، أطلق سنوهى سهمه الذى استقر في عنق غريمه، ثم أهوى عليه بفأس ففضى عليه. وعاش سنوهى في الصحراء عزيزاً مكرماً حتى أدركته الشيخوخة، فأخذ الحنين يهزه إلى الوطن، ودأب على أن يجتم صلواته مناجياً ربه (هلا قدرت لى أن أرى الديار التى أهوى، فليس أعظم لدى ولا أثر عندى من أن أدفن في الأرض التى ولدت فيها). ثم تصل أخبار سنوهى هذه إلى العصر فيعمو عنه فرعون ويبلغه الأمر الملكى بالعودة إلى الوطن، فلما عاد أحسن فرعون لقاءه وأكرم مثواه وردده إلى مكانه بين رجال بلاطه.

تلك قصة تصور لنا أحوال البلاد السياسية والاقتصادية والحزبية وقتئذ. وهى مرآة صافية لوجه الحياة في فلسطين. ولقد فتن المصريون القدماء بها، وظل الناس ينسخونها ويتداولونها دهرًا طويلاً.

ثم قصة البحار التى ترجع إلى أيام الدولة الوسطى، وتشبه إلى حد كبير قصص (السندباد البحرى) من ألف ليلة وليلة، وقصة روبنصن كروزو الإنجليزية. وتحدثنا تلك القصة الطريفة عن مصرى ركب فلكا بالشراع، إلى بعض البقاع النائية، ليؤدى رسالة لفرعون، فلما همت الفلك، هبت على البحر عاصفة هوجاء، حطمت السفينة، فهوت بركابها إلى قاع اليم. ولم يكتب النجاة لغير صاحب القصة. إذ قذفت إليه الأمواج بقطعة من حطام الشراع فتشبث بها، وحمله الموج، ثم قذف به إلى جزيرة منعزلة لا يسكنها أحد. فلما أفاق من هول الواقعة طفق يبحث في الجزيرة عن رزقه. فوجد فيها خيراً كثيراً. ثم لقى هناك رأس حية هائلة، ما كانت الجزيرة إلا جسمها، فروع قلبه. ولكن الحية طمأنته بعد أن أنبأها بقصته، وورق له قلبها، ووعدته بأطيب العيش في الجزيرة. وبعد بضعة أشهر مرت سفينة مصرى بالجزيرة فحملته إلى أرض الوطن سالماً.

وقد وضعت القصة في أسلوب رقيق يعبر عن أجمل العواطف ويستثير روح البطولة والمجازفة، ويصور حياة الملاحين وقتند تصويراً دقيقاً.

هذه نماذج من عشرات القصص والأساطير التي كانت تتناول كافة نواحي الحياة في مصر الفرعونية والتي منها نتصور جانباً من الكتاب الفرعوني.

وفي الأدب التهذيبي الذي يصفه الدكتور جمال مختار بأنه عبارة عن تعاليم ووصايا سياسية أو خلقية من فرعون أو إحدى الشخصيات البارزة وبوجهها بصفة خاصة لابنه. ومن ذلك كتاب الحكم لبنتاح حنوب وهو خير ما يملك التاريخ الفرعوني من هذا النوع من الأدب، في عصر الدولة القديمة، اتخذ منه المصريون معيناً للحكم والتعاليم، وجعلوا منه أساساً لأصول التربية والسلوك. والذي يقرأ كتاب (بنتاح حنوب) يستطيع أن يحكم منه على اتجاه الأدب الفرعوني في ذلك العهد، وعلى القبح الخنثية وأداب السلوك العام، ويستطيع أن يرى فيه ما لا يشير إلى ارتفاع مستوى الحياة المصرية أيضاً. بعض نصوص ذلك الحكم لا تزال نسمعها الآن كما سمعها المصري منذ آلاف السنين مثل:

(لا تخن من اتتمنك لتزداد شرفاً ويعمر بيتك).

(لا تترك التحلى بحلية العلم ودمائة الخلق).

(كن سمح الوجه ما حبيت).

ومن صور الكتاب الفرعوني يمكننا أن نضيف تعاليم أمنمحات الأول لولده سنوسرت فقد كتب الملك أمنمحات الأول، مؤسس الأسرة الثانية عشرة، وصية لابنه لتكون بمثابة دستور يسترشد به في حكم البلاد. وقد جاءت هذه التعاليم خلاصة تجارب ذلك الرجل من ناحية، وصورة صادقة لحياته المليئة بالجد والكفاح من ناحية أخرى. وقد كانت تحتل مكاناً رفيعاً بين آداب المصريين في ذلك العهد. وظاهر من مطلع الوصية أن الملك الشيخ قد امتلأت نفسه بالشك والريبة بعد المؤامرة التي دبرت لقتله، فأخذ يحذر ولده من الناس، بل من أقرب الناس إليه، فيقول مخاطباً إياه:

«أنت يا من غدوت ملكاً، استمع لما أقول حتى تصبح ملكاً على الوادى، وحتى يمكنك أن تعمل صالحاً. خذ الحذر من عمالك، فما أطاع الناس إلا من أربهم. وإياك أن تدنو منهم وحدك، وإياك أن تنق بأخ، أو تصطفى لنفسك صاحباً، فلا خير في ذلك كله. ولتكن حارس نفسك عندما تنام حرصاً على حياتك، فلا صديق لأمريء في ساعة المخرج والشدة. لقد أعطيت السائل وريبت اليتيم، وأعنت المعدوم، ومع ذلك من أكل عيشي هو الذي استعدى الناس على، والذي مددت له يد المعونة ردها بالكبر».

وهكذا يسوق الشيخ النصح لخليفته في ألفاظ تدل على طول خبرته وتجاربه، وهي في الوقت نفسه مرآة لقلبه المحزون، ونفسه المليئة بالشك والريبة. كذلك لم يترك المصريون في زمان الدولة الوسطى وزمان الدولة الحديثة نوعاً من الأدب امتاز بأسلوبه الشعرى الذى يجعله أقرب إلى النظم منه إلى النثر، والذي يمكن أن نسميه أدب الملاح.

هكذا يمكننا أن نتصور محتوى الكتاب في الحضارة الفرعونية. فإذا انتقلنا إلى فجر الحضارة العربية نتلمس تاريخ الكتاب وجدنا المعلقات في الجاهلية أقدم صور الكتاب في التاريخ العربي. والمعلقات

كما هو معروف في تاريخ الأدب العربي هي أبرع القصائد للشعراء في الجاهلية. وأنهم كانوا يعلقونها على الكعبة تعظيماً وتشريفاً لتلك القصائد. ومهما شك النقاد والمؤرخون في إجراءات تعليق القصائد. أو شكوا في كثير من الشعر الجاهلي برمته، فإن شكهم لا ينفي ازدهار الشعر في الجاهلية، ولا ينفي أن العرب كانوا يعلقون في أستار الكعبة أو في جوفها ما يكبرون أمره.

ويروى بعض مؤرخي الشعر الجاهلي أن ملوك الغساسنة المتأخرين كانوا يحتفظون في خزائهم بديوان يضم القصائد التي مدح بها الشعراء أجدادهم من الملوك. ولكن هذا الديوان لم يصل إلى المتأخرين منسوخاً أو مكتوباً، وإنما ظل النقل الشفاهي للقصائد متفرقة حتى عصر التدوين في الدولة الإسلامية.

والصحيفة المكتوبة في العهد المكي للنبوة هي صحيفة المقاطعة التي تمهدت فيها قريش بمقاطعة بني عبد المطلب مقاطعة كاملة لا يبيعون لهم ولا يشترون منهم ولا يزوجونهم ولا يتزوجون منهم. وذلك بغية إجبار أبي طالب زعيم العشيرة وعم الرسول ﷺ وسلم على تسليمه محمداً أو القضاء على الإسلام. وقد علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم وتشدداً في المقاطعة. وقد لقي أبو طالب ومعه بنو هاشم (عدا أبو لهب) وبنو عبد المطلب عنتاً شديداً من الحصار الذي بلغ حد التجويع، حتى تعض بعض أصحاب الصحيفة شروطها الجائرة. ومزقها مصعب بن عدي. ذلك الرجل الذي أجاز رسول الله ﷺ عقب عودته من تقيف بالطائف.

أما الصحيفة المكتوبة في العهد المدني فهي أول وثيقة في تاريخ الأمة الإسلامية عقب الهجرة مباشرة. وفيها بيان الحقوق والواجبات للمسلمين من مهاجرين وأنصار، ولشركي المدينة، ولليهود. وهذه الوثيقة التي أوردها ابن هشام في كتابه المشهور عن سيرة الرسول ﷺ. ولم يذكر النص المكتوب الذي نقل منه. ولكن المشهور أنه كتب السيرة عن ابن إسحق بطريقة المشافهة.

وتروى لنا كتب السيرة أن صلح الحديبية كان مكتوباً. وكذلك تروى لنا كتب الحديث جوانب عما جمع من بعض أحاديث الرسول ﷺ. فقد روى نافع عن ابن عمر أنه وجد في قائم سيف عمر بن الخطاب رضى الله عنه صحيفة فيها صدقة السوائم. وروى محمد بن عبد الرحمن الأنصاري قال: لما استخلف عمر بن عبد العزيز أرسل إلى المدينة يلتمس كتاب رسول الله ﷺ في الصدقات، وكتاب عمر بن الخطاب. ووجد عند آل عمر كتاب عمر في الصدقات مثل كتاب رسول الله ﷺ. قال فنسخناه له. وروى محمد بن علي بن أبي طالب رضى الله عنها قال أرسلني أبي، قال: خذ هذا الكتاب فاذهب به إلى عثمان، فإن فيه أمر النبي ﷺ بالصدقة. أما أشهر الكتب أو الصحف التي عرفتها العربية، غير القرآن الكريم، فهو صحيفة الصادقة لعبد الله بن عمرو بن العاص (٥٧ هـ - ٦٥ هـ). والصادقة تحوى أحاديث عن الرسول ﷺ. وفي تاريخ الإسلام قضية أو مشكلة علمية تتعلق بتدوين الحديث، ذلك أن النبي ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده صرفوا جهدهم الأول في العناية والتدوين والمحافظة على القرآن الكريم، ولم يسمحوا لنص آخر يختلط به أو يواجهه أو يصرف الناس عنه. غير أن المشكلة العلمية التي تواجه الباحثين في تدوين الحديث هي أنه في عصر النبوة، ثم في عصر الخلفاء الراشدين، لم يكن النهي قاطعاً عن تدوين الحديث. ولكن بصفة عامة كان الانصراف إلى حفظ القرآن. ومن الحالات النادرة التي دون فيها بعض الحديث حالة الصادقة. فقد سمع الرسول ﷺ

لعبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنها بكتابة الحديث. لأنه كان كاتباً محسناً. واشتهرت صحيفته بالصحيفة الصادقة كما أراد كاتبها أن يسميها. ولم تصلنا الصادقة كما كتبها عبد الله بن عمرو بخطه، وإنما نقل الإمام أحمد محتواها في مسنده. وضمت كتب السنن جانباً منها. ومن ثم فإن انتقالها من التدوين إلى المشاهدة ثم إلى التدوين يجعل ما نقل منها يخضع لدراسة علماء الحديث. وما نستشفه عن عبد الله بن عمرو أنه كان باحثاً بالمعنى القريب من البحث العلمى في عصرنا هذا. أو كان مهتماً بالكتابة على وجه من الوجوه. فيروى أنه كان يلى الحديث على تلاميذه في مصر. وأنه عقب معركة اليرموك حصل على كتب كثيرة مما كان في حوزة أهل الكتاب حملها على بعيرين.

وإذا كانت الصحيفة الصادقة لم تصلنا بخط كاتبها فإن صحيفة أخرى وصلتنا مكتوبة هي الصحيفة الصحيحة لهمام بن منبه (٤٠-١٣١هـ). وهمام ليس صحابياً ولكنه تابع، أى أدرك بعض الصحابة. لقد لقي همام الصحابي الجليل أباهريرة وكتب عنه كثيراً من الأحاديث التي رواها عن النبي ﷺ وجمعه في صحيفة أطلق عليها الصحيفة على مثال الصادقة. ولقد عثر على هذه الصحيفة الدكتور المحقق محمد حميد الله في مخطوطتين متماثلتين في دمشق وبرلين^(١٣). وكان الإمام أحمد قد نقلها يتمامها في مسنده. وإلى جانب تلك الجهود المتفرقة في تدوين الحديث كانت تظهر جهود أخرى في التأليف المبكر^(١٤). تتمثل فيها ترجم لخالد بن يزيد بن معاوية من علوم اليونان، وما ألف هو من كتب في الطب والكيمياء، وما ألفه عبداالله بن شرية لمعاوية بن أبي سفيان من أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها. وقد طبع هذا الكتاب في «حيدر أباد» سنة ١٣٤٧ هـ. ويرجح بعض المحققين نسبتها لابن هشام. ثم ما ألفه وهب بن منبه المتوفى سنة ١١٠ هـ من كتاب التيجان في ملوك حمير. وقد طبع هذا الكتاب من رواية ابن هشام سنة ١٣٤٧ هـ مع سابقه. كما ذكر بعض الباحثين أن زياد بن أبيه وضع لابنه كتاباً في مثالب العرب، وأن يونس بن سليمان وضع كتاباً في الأغاني ونسبتها إلى المغنين، وأن «ما سرجويه» الطبيب ترجم كتاب «أهرن بن أعين» من السريانية إلى العربية.

فإذا انتقلنا مع تاريخ الكتاب إلى عصر النهضة الأوروبية، فإننا نجد أنه عندما اخترع جوتنبرج الطباعة (١٤٣٦ م) كان النسخ هو السائد في إنتاج الكتب. وظل بعد المطبعة لفترة طويلة، ولكن القليل من إنتاج الكتب كان يطبع بطريقة الطباعة الخشبية التي تكاد تشبه (الكليشيات) في عصرنا هذا. ومحدثنا (أريك دي جروليه) بأنه في السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر الميلادي طبع على الخشب تقاويم، وكتب مزخرفة لتعليم الأبيدية، وكتب صغيرة تتألف من عشرين إلى ثلاثين صفحة. وهي تشمل كتباً في الإرشاد الديني أو الأجروميات أو كتباً مدرسية أو كتباً في الطوابع. وكانت الصور عنصراً هاماً في هذه الكتب. ومطبوعات «جوتنبرج» الأولى مطبوعات صغيرة شبيهة بالتي كانت تطبع بالألواح الخشبية، وهي عبارة عن أربع أجروميات، ونشرة من اثنتي عشرة صحيفة موجهة

(١٣) محمد عجاج الخطيب - أصول الحديث (علومه ومصطلحه) - الطبعة الرابعة - دار الفكر - بيروت - ١٩٨١ م -

ص ٥٤٤.

(١٤) عبد السلام هارون - تحقيق النصوص ونشرها - الطبعة الثانية - مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع - القاهرة -

١٩٦٥ - ص ١٢.

ضد الأتراك. وقصيدة باللغة الألمانية للكشف عن الطالع، وتقوم سنة ١٤٥٧ م، ولوحة تبين مواقع الكواكب لمعرفة الطالع ترجع إلى عام ١٤٥٠م. واتجه الطابعون أو الناشررون الأوروبيون في أعقاب اختراع الطباعة إلى طباعة ونشر التراث (اليوناني) القديم. وفي أواخر القرن السادس عشر أصاب خريطة صناعة الكتاب في أوروبا تغير كبير، فقد ضعفت التيارات التجارية التي كانت سبباً في إثراء البندقية، واختفى الأمراء والبابوات المترفون حماة الفنون والآداب وأضحل الكتاب الإيطالي. وكانت الاضطرابات السياسية في ألمانيا سبباً في تأخر الكتاب الألماني. وكانت الحروب الدينية في فرنسا سبباً في تعويق حركة نشر الكتب. وكانت حركة نشر الكتب في أوروبا في القرن السابع عشر تحاول تخفيف حدة المنافسة، وتنشيط السوق كلما ألم بها الكساد، وتقاوم الرقابة الحكومية القاسية على المطابع. ثم جاء القرن الثامن عشر فكان عصر الكتاب الذهبي المطبوع في فرنسا. وكانت باريس في تلك الآونة المثال الذي يجتدى في أوروبا كلها في هذا الميدان، فقد سارت على نهجها «لا بيزج» «وملريد» و«بطرسبرج» وكان أثرها ملموساً حتى في أمريكا^(١٥). وكان القرن الثامن عشر كما هو معروف في تاريخ أوروبا الحديث قرن الثورة الصناعية. ولقد صاحب هذه الثورة تقدم ثقافي واسع النطاق فأصبح الكتاب يضم دوائر المعارف، والكتب ذات الأجزاء الضخمة المتعددة. والكتاب المطبوع بالألوان والذي يحوى الصور الفنية والخرائط والرسوم. ومع الثورة الصناعية ونشأة الطبقة العاملة المتعلمة بدأ عصر الكتاب السعبي الساذج في القرن السابع عشر الذي كان يطبع بلهجة رديئة، ويحوى بصور تافهة، ويحوى مضامين مثل التقاويم وتفسير الأحلام والقصص الخرافية. أصبح الكتاب الشعبي في القرن الثامن عشر أجود في طباعته، ويحوى قصصاً أكثر تطوراً وتقدماً مما كان عليه كتاب القرن السابع عشر. كما بدأت كتب الأطفال في القرن الثامن عشر أيضاً. ثم كان نجاح الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩، وتكسيها للقيود التي تعوق إطلاق الإنتاج الرأسمالي. وانتشار ذلك في أوروبا بأسرها، كان ذلك كله خطوة باهرة في إنتاج الكتاب وانتشاره.

الكتاب والتراث:

يرتبط الكتاب بالتراث ارتباطاً وثيقاً. لأنه أهم وأكبر وأخطر أوعية التراث. وفي عالمنا العربي والإسلامي الرباط أوثق. وتبدو كلمة التراث فخمة ومحاطة بشيء من المقداسة. في حين أن التراث عموماً يحوى أحياناً أشياء عديمة القيمة، بل وأشياء ضارة، كما أن الأغاني الشعبية والرقص وحكايات الجدات والأساطير وكافة أشكال «الفولكلور» تصنف ضمن التراث. ولكن التراث المرتبط بالكتاب العربي على وجه الخصوص يطلق على كنوز المعرفة التي خلفتها الحضارة العربية الإسلامية في عصور أزدهارها، برغم ما بها من بعض الشوائب. هذا بطبيعة الحال غير التراث الفكري الإسلامي الذي يسير في حياة الأمة العربية سير الدم في العروق. وهذا التراث (الديناميكي) قد نحس به وقد لا نحس ولكنه يحكم حياتنا المعاصرة إحصائياً شديداً. وهذا الإحصاء الشديد ما يجعل مشكلة التراث في حياتنا المعاصرة مشكلة حية مشتعلة متجددة.

ونحن نستخدم تعبيرات متعددة حول قضية واحدة هي إحياء التراث. فنقول بتحقيق التراث.

(١٥) ايريك دي جرويه - (مرجع سابق)، ص ١٠٧، ص ١١٤.

وتقول مشكلة التراث، ونقول الاهتمام بالتراث. وهذه القضية لا يكاد مفكر عربي إلا ودلى فيها بدلوه.

يقول الدكتور حسين مؤنس^(١٦) التراث يشمل ثلاثة أشياء: تراث يختص بالكتب والمؤلفات، وتراث العلم الذي انتقل إلى الغرب وبلاد العالم، وأصبح جزءاً من حضارة العالم، وتراث التقاليد والعادات والمأثورات، وهو غير مدون في كتب وإنما يتمثل في الناس والأشخاص. فأما تراث الكتب فهو تراث جليل لأن أي أمة من الأمم الماضية لم تكتب من الكتب قدر ما كتب العرب، ويكفى أن أذكر أننا نقدر أعداد الكتب العربية وأغنى (المخطوطات الموجودة في مكتبات العالم العربي والإسلامي وخارجه) بنحو مليونين من المخطوطات بينما في المقابل لو أحصينا ما كتبه اليونان والرومان فلن نجد أكثر من عشرة آلاف مخطوط.

إن تراثنا الحضاري العربي الإسلامي قد تناول كل نواحي العلم والمعرفة، التي عرفت في العصور الماضية، ولم يترك العلماء العرب أو المهندسون أو المعماريون أو الحرفيون أمراً إلا وطرقوه وخاصوا في تفاصيله فالأمة العربية أبدت فعالية ونشاطاً كبيرين في أوج تألقها. والمشكلة أن جانباً كبيراً من تراثنا غير محقق ولا مجموع.

ويفرق بعض الباحثين بين تيارين من التراث تيار يمكن أن نسميه التراث المتحفى على حد تعبير الدكتور فؤاد مرسى، وتيار يمكن أن نسميه التراث الحياقي. وهذا التراث الحياقي موصول وموجود في عروقنا كالدّم. إنه التراث المتحرك. ويمكن تلخيص العلاقة الإيجابية بين الكتاب والتراث في واقعنا العربي المعاصر إلى أربعة نقاط رئيسية هي:

١ - تحقيق المفيد من التراث ونشره والمفيد هنا بمعنى المفيد لحياتنا الحاضرة. فالدكتور زكي نجيب^(١٧) عندما يتناول قضية إحياء التراث يرى أنه ليس من الإحياء في شيء إعادة طبع كتاب اصفرت أوراقه في كتاب ابيضض فيه تلك الأوراق. أو نقل (المادة) من (مخطوط) إلى كتاب (مطبوع) دون النظر إلى قيمة المخطوط والغائدة التي يمكن أن تجني من وراء تحقيقه ونشره أولاً وقبل أي شيء. وإنما الهدف من الإحياء أن يخرج قارئه ودارسه بروح يستمدّها مما قرأ أو درس ليبتها في حناياه، فإذا هو مصطنع لنظرة جديدة من شأنها أن تعقد الأواصر بينه وبين السلف الذي أحيينا تراثه، حتى لو وقف من مضمون آرائه موقف الناقد أو المتشكك. فالقارئ لديوان المتنبي، مثلاً، قراءة إحياء يجب أن يخرج منها وقد سرت في عروقه كبرياء هذا الشاعر القديم. وقارئ (فكر المعتزلة) القراءة نفسها يجب أن يخرج منه إنساناً يعتد بإرادته الحرة، التي أسبغت عليه كرامة الإنسان، لأنها ألقت على كتفيه تبعات الإنسان. إن هذا الروع من القراءة الإحيائية لا يحول، بأية حال في أن نقف من شعر المتنبي والفكر المعتزلي موقف الناقد البناء الموجه.

ويرى الدكتور شكري فيصل أن إحياء التراث ليس عملاً تاريخياً يرتبط بالماضي بل هو عمل يرتبط بالمستقبل. إنه ليس زينة وليس إشادة عاطفية ووفاء للأجداد وإنما هو سلاح للغد. إنه نوع من الإعداد ولون من كسب الثقة بالنفس.

(١٦) د. حسين مؤنس - من حديث معه بجريدة الشرق الأوسط بتاريخ ١٩٨٣/٧/٣٠.

(١٧) د. زكي نجيب محمود - إحياء التراث - مجلة العربي - العدد ٢٦٥ - بتاريخ ١٩٨٣/٧/٣٠.

٢ - البحث في التراث. أى كتابة بحوث عنه وحوله، ونشرها. لأنه جزء من الفكر الإنسانى. ويرى الدكتور يوسف بكار أن إحياء التراث يظل ضرورة علمية قومية حضارية إنسانية لكل مه تقدر ما يستحق التقدير من تراثها وتحاول أن تفيد منه في حاضرها ومستقبلها، وتقدمه للإنسانية (هدايا) تتم عن (مقدار مهديها).

٣ - نقد التراث حتى لا يصبح مثل الآبار المسعمة، بغير علامات تحذر من يشرب منها. أو مثل السير في حقل ألقام، بغير خريطة تبين مواقع الألقام، وسبل تجنبها.

٤ - التنسيق بين البلدان العربية حول إحياء التراث ونشره. فإدام التراث ملكاً للأمة يرمتها ينبغي إذن التنسيق بينها في نشره. ولو في أبسط أشكال التنسيق. ففى معظم البلدان العربية مجالس وجمعيات وهيئات وإدارات تعمل في مجال إحياء التراث ونشره. هذا إلى جانب الجامعات العربية ووزارات الثقافة والإعلام والإرشاد ومراكز البحوث والناشرين. فإذا تمكنت الجامعة العربية ممثلة في منظماتها المتخصصة في التربية والثقافة والعلوم في وضع أساس للتعاون وللتنسيق بين هذه الجهات، لتحقق فتائدة كبيرة. إن مجرد إقامة جسور بين هذه الجزر المتفرقة يجعل محصلة الجهد النهائى هى حاصل جمع الجهود الجزئية، في حين أن عدم الربط بينها يقلل من جهدها بالتكرار والعشوائية والتخطيط.

الكتاب والرقابة:

يمثل الكتاب منذ أقدم العصور الصورة المثلى للصراع بين الفكرة وبين السلطة. ولكل عصر صور الرقابة الخاصة به، تلك الصور التى تبدأ بتحريم تناول موضوعات معينة، إلى الرقابة الذاتية التى يمارسها عقل وقلب المؤلف في مناخ القهر بصورة تلقائية. ولقد شملت الرقابة في العصور الحديثة التى أعقبت ظهور الطباعة، إنشاء المطابع في حد ذاتها كما ارتبطت حرية إنشاء المطابع مع حرية الصحافة مع حرية نشر الكتب برباط واحد. كانت سلطة الدولة وسلطة الكنيسة تنظران إلى الكتب وإلى الصحف باعتبارها تهديدات لسلطانها. وكان هنرى الثامن في عام ١٥٢٩ م مثلاً في إنجلترا يحاول السيطرة على المطابع بقائمة من الكتب المنوعة. لقد فرضت معظم الحكومات المستبدة في أوروبا الرقابة على إنشاء المطابع في القرنين الخامس عشر والسادس عشر. وكان الصراع حول حرية الصحافة وحرية نشر الكتب سلسلة متصلة الجولات بين المستبدين وأنصار الحرية في أوروبا بعد اختراع الطباعة. حتى كان النصر الحاسم لأنصار الحرية، بفضل الثورات التى رفعت شعار الحرية مثل الثورة الفرنسية ١٧٩٨، وبفضل الحروب الأهلية مثل الحرب الأهلية البريطانية فيها بين عامى (١٦٤٢ - ١٦٤٩)، وبفضل الإصلاح الدينى في أوروبا، والتحرر من السلطان الكنسى الخائق. وتاريخ العلاقة بين الرقابة والكتاب في أوروبا خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر يحفل بالنماذج المختلفة للصراع بين الكتاب وسلطان الكنيسة والسلطان الدنيوى، فكتاب الأمير المشهور لمكيا فيلى الذى طبع في عام ١٥٣٢ بترخيص من البابا «كليمنتى»، وصفه بعض أساقفة الكنيسة بعد ذلك بأنه كتب بأضاع الشيطان، وفي عام ١٥٥٧ أصدر البابا بولس السابع منشوراً يلصق فيه الكفر لمكيا فيلى الذى توفي قبل طبع الكتاب، وأصبح الكتاب من المحرمات. وطالب «الجزويت» في إقليم «باقاريا» بإحراق الكتاب، في القرن السادس عشر. والواقع أنه في أثر ظهور الطباعة أصدر كبير أساقفة مدينة

«ميتز» الألمانية مهد الطباعة الأولى مرسوما في عام ١٤٨٦ بوجوب مراقبة المطابع حماية للكنيسة. ثم تلت ذلك مراسيم بابوية في هذا الشأن. وفي عام ١٥٦٣ بدأت الكنيسة الكاثوليكية في نشر قوانينها بالكتب المحرمة. أما في جامعة باريس فكانت كلية اللاهوت بها هي المختصة برقابة جميع المؤلفات الدينية منذ عام ١٥٢٦.

وإذا كانت العلاقة بين الكتاب وبين الرقابة مشكلة عادية في الكتب العامة فإنها مشكلة خاصة في الكتب التي تتناول أموراً عسكرية. ماذا يحدث عندما ينشر قائد عسكري هارب كتاباً يحوى أسراراً وخططاً ووثائق يحظر نشرها بكل الأعراف العسكرية والدولية؟ وماذا يحدث إذا كانت السلطات تمنع في الداخل نشر ما يتعلق بحرب مضت لتدفن قصورها وتقصرها في الظلام؟ إن هذين التناقضين أثاراً أنيس منصور^(١٧) (عام ١٩٨٣) بمناسبة نشر كتابين أحدهما للفريق محمد فوزي عن حرب الثلاث سنوات ١٩٦٧ - ١٩٧٠ م بين مصر وإسرائيل، والثاني من قبل للفريق الشاذلي عن حرب ١٩٧٣. وقد حوى كل كتاب أسراراً وخططاً ووثائق سرية. وتساءل أنيس منصور:

«هل لا توجد في التقاليد العسكرية أو اللوائح أو القوانين ما يحتم مساءلة مثل هذين القائدين الكبيرين؟.. لا بد من مساءلة أو لا بد من مراجعة، ولكن يجب ألا نمنع أحداً من نشر ما يعتقد، كيف ذلك؟»

يجيب: نفع ما فعلته إسرائيل مع قادتها العسكريين. فهم لا بد أن يقدموا أصول الكتاب للجنة رقابة يرأسها وزير العدل. هذه اللجنة مهمتها حماية الأمن القومي. فتحذف من الكتاب ما تراه ضاراً بالأمن القومي فقط. ويحق للمؤلف بعد ذلك أن ينشر كتابه بجميع اللغات. ويستطرد أنيس منصور قائلاً:

ولقد سألت موسى ديان إن كانت الرقابة قد حذفت من كتابه (الاختراق) شيئاً، فقال: عبارة. وسألت «عيزر فايتسمان» إن كانت الرقابة حذفت من كتابه معركة السلام شيئاً فقال: نكتة. وسألت حاييم هرتسوج رئيس إسرائيل الجديد إن كانوا قد حذفوا من كتابه عن (الحروب الإسرائيلية العربية) فقال: منعوا الإشارة إلى أحد المراجع في آخر الكتاب.»

وفي عالمنا العربي الذي خضعت معظم أقطاره إلى السلطان العثماني حتى القرن العشرين الميلادي كان قانون المطبوعات العثماني ساري المفعول في هذه البلدان. وكانت نصوص قانون المطبوعات العثماني تفرض الرقابة على إنشاء المطابع، وتفرض الرقابة على الكتاب العادي، وتفرض رقابة مضاعفة على الكتاب الإسلامي، فيشمل الترخيص بطباعته موافقة جهات الأمن وموافقة الهيئات الدينية معاً.

وبعد انسلاخ مصر من الحكم العثماني، وبداية عصر محمد علي في القرن التاسع عشر، فرضت الرقابة على الكتب على أثر واقعة مثيرة. برغم أن المطبعة كانت تابعة للوالي. ويروي الدكتور إبراهيم عبده^(١٨) نقلاً عن (بروشى) (Brocchi) الملاحظات التي جعلت محمد علي

(١٨) د إبراهيم عبده - عمدة الصحافة وولى النعم - سجل العرب - القاهرة - ١٩٧٨ ص ٨ - ٩.

يصدر أمراً في ١٣ يولية ١٨٢٣ يلزم المؤلف أو الناشر الذي يطبع كتاباً في المطبعة الأميرية بالحصول على إذن خاص منه بطبعه فيقول:

« كان بين مدرسى مدرسة الفنون الجميلة الإيطالي بيلوتي (Bilotti) وقد نظم هذا المدرس قصيدة شعرية طويلة سماها ديانة الشرقيين أساء فيها بإساءة بالغة إلى الإسلام والمسلمين، ودعا فيها إلى التهوين من أمر هذا الدين والسخرية برجاله، وقد اتفق (بيلوتي) سراً مع نقولا مسابكي أفتدى ناظر مطبعة بولاق على نشر قصيدته في المطبعة. وكان مسابكي تلميذاً لإيطاليا وأحد مبعوثي الوالي فيها، وهو لا يعنيه أمر احترام الدين الإسلامي في شيء، وإيطاليا في ذلك الوقت موطن العداء لهذا الدين، فتم طبع القصيدة دون علم الوالي. لكن سولت (Swilt) قنصل إنجلترا في مصر وقتئذ، كان في خصومة مع النظام الإيطالي، فرأى هذه الفرصة وسيلة يتوسل بها للإيقاع به، فروى للباشا الخبر وكشف له عن طبع القصيدة بالمطبعة الأميرية، وتبين للباشا أن في الكتاب فحشاً في القول وازيافة بالدين. إلى درجة أنه يستحيل على أي حكومة أن تقبل ألفاظه أو معانيه مهما تتساهل في حرية النشر أو حرية القول والكتابة. فأمر محمد علي بخطوط الكتاب لألقى في النار. وكاد يقتل مسابكي. ولولا شفاعة عثمان نور الدين من رجاله المقربين لثم القضاء على المؤلف ونشره معاً. ومن ثم أصدر محمد علي أمراً في ١٣ يولية عام ١٨٢٣ م (٤ ذى الحجة سنة ١٢٣٨ هـ) يحرم طبع أي كتاب في مطبعة بولاق إلا إذا استصدر مؤلفه أو ناشره إذنا خاصاً من الباشا بطبعه، وفرض العقوبة على من يخالف هذا الأمر.»

كان هذا الأمر أول قانون ينظم طبع الكتب في مصر. وقد سبق هذا القانون إنشاء المطبعة الأميرية عام ١٨١٩ التي طبعت كتب الدراسة وما شابهها بطريقة عفوية. حتى حدثت الواقعة التي دفعت بالوالي أن يصدر القانون. كما سبق المطبعة الأميرية وسبق عصر محمد علي تشريع نابليون بونابرت الذي أصدره في ١٤ يناير ١٧٩٩ في عهد الحملة الفرنسية على مصر. ولكن قانون نابليون جزء من إجراءات الحملة. ومطبعة الحملة رحلت مع رحيل الجنود ولم يبق منها ومن قانون نابليون شيء. وهذا القانون هو أول قانون للمطبوعات وآخر قانون لها في عهد محمد علي وعهد خليفته إبراهيم وعباس:

وفي عهد سعيد باشا صدر القانون الثاني عام ١٨٥٥ الذي ينظم طباعة الكتب وإدارة المطابع. ويتعلق الأمر بصدوره^(١٩) بواقعة طريفة. وهي أن مواطناً تقدم لديوان الداخلية يعرض عسر حاله، وأن له داية بفن الطباعة على الحجر، ولذا يطلب السماح له (بتدوير عدة طباعة واحدة لطبع بعض كتب صغيرة لازمة لتعليم الأطفال لأجل سهولة معاشه ومنفعة الأطفال تحت ظل الخديوي). وعرض هذا الأمر على المجلس الخصوصي، فأصدر قراراً هو في حكم القانون، ينص على أنه (لا مانع من الترخيص لمن يكون ذو معرفة لإدارة مطابع بملازم الحجر لإدارة أمر معاشه، إنما يكون ذلك بعد أن يؤخذ عليه سند الشروط من ورق الدمغة على الوجه المشروح) ثم يذكر القرار خمسة شروط وخاتمة.

الشروط الأول: أن يتقدم المؤلف أو من يريد الطبع بنسخة مما يريد طبعه إلى نظارة الداخلية

(١٩) المرجع السابق ص ١١، ١٢ - ١٣ نقلاً عن محفوظات عابدين - دفتر مجموعة إدارة وإجراءات ص ٢٠٧.

(لأجل مطالعتها والنظر فيها. إن كانت مضرّة للديانة ولمنافع الدولة العلية والدول الأجنبية والعامة أم لا ومتى وجد أن لا مانع من طبع ذلك ووافق هذا بالدويان فيعطى إليه الرخصة اللازمة وإن طبع شيء من هذا بدون إذن يصير من المخالفين).

والشرط الثاني: هو إغلاق المطبعة في حالة الطبع دون الحصول على الرخصة. أما الشرط الثالث: فيتعلق بوقف أى مطبوع فيه إهانة للديانة «ولديبوليتيقة» والأدب والأخلاق بعرفة الضبطية.

والشرط الرابع: هو التزام صاحب المطبعة بعدم طبع عدد زيادة من النسخ المتفق عليها وإن فعل يعد سارقاً.

الشرط الخامس: ينص على أنه إذا حصل من المطبعجى أدنى مخالفة لهذه البنود فيعد مخالفاً للنظام، ويجرى غلق مطبعته وبجاراته.

أما الخاتمة: فتتص على أن يؤخذ تعهد على المطبعجى بقبول البنود الموضحة بالشروط الخمسة. وقد كان هذا القانون جزءاً من التشريعين اللذين أصدرهما سعيد باشا للمطبوعات، أحدهما خاص بالمصريين، والثاني خاص بالأجانب. وعند إنشاء مكتب الصحافة عام ١٨٥٧ تابعاً لحكومة الوالى، أصبح هو الجهة المسؤولة عن تنفيذ التشريعين. وأصبح على كل صاحب مطبعة أن يحصل على ترخيص بفتح مطبعته. ولقد حدد القانون الصادر في عهد سعيد عام ١٨٥٥ أنذاك الكتب المنوعة من النشر، بأنها الكتب التى فيها مساس بالدين، ثم الكتب التى فيها مساس بسياسة الحكومة الداخلية والخارجية، ثم الكتب التى فيها مساس بالأداب العامة والأخلاق العامة. وفى عام ١٨٨١ بسبب ظروف الثورة العرابية أصدر توفيق باشا قانون المطبوعات المعروف باسمه فى ذلك العام، مشدداً الرقابة على الكتب، حتى نصت المادة الرابعة منه على حجز وضبط أى مطبوع كان فى الأحوال الآتية:

(أ) إذا لم يبرز صاحب المطبعة وصلاً من إدارة المطبوعات بتقديره كتابة معلنة بسابق عزمه على الطبع أو النسخ المقررة.

(ب) إذا لم يوضح فى كل نسخة اسم ومحل وسكن صاحب المطبعة.

(ج) إذا أقيمت فى إحدى المحاكم دعوى تتعلق بمضمون ذلك التأليف.

ثم جاء بعد ذلك قانون عام ١٩٣٦، وكانت أهم تعديلاته والقرارات المتعلقة به فى ١٩٥٦، ثم فى عام ١٩٥٧، ثم فى عام ١٩٦٩. ولقد ذكرت المادة العاشرة من هذا القانون أنه يجوز لمجلس الوزراء أن يمنع من التداول فى مصر المطبوعات المثيرة للشهوات، وكذلك المطبوعات التى تتعرض للأديان تعرضاً من شأنه تكدير السلم العام. ويرى الدكتور شعبان خليفة^(٢٠) أنه على الرغم من أن القانون لم يذكر غير هذين الركنين لمنع التداول فإن الممارسة الفعلية للرقابة تضيف إليهما عدم تعرض المطبوع للسياسة الداخلية أو الخارجية، أو علاقة مصر بالدول الأخرى. والمنع من التداول يشمل أموراً ثلاثة هى:

(أ) منع النشر.

(٢٠) د شعبان خليفة - حركة نشر الكتب فى مصر - دار الثقافة للطباعة والنشر - القاهرة - ١٩٧٤ - ص ١٥٤.

(ب) الحذف أو التعديل في نص الكتاب.

(ج) المصادر.

وهذه الأمور الثلاثة تتضح من الممارسة الفعلية لهذا القانون الذى تقوم بتنفيذه مصلحة الاستعلامات أو هيئة الاستعلامات.

وتكاد تنحصر صور الرقابة في بلدان العالم الثالث على ما يلي:

١ - الحصول على ترخيص لنشر الكتاب مسبقاً، وفي هذه الحالة يقدم نص الكتاب إلى الجهة المسئولة (وزارة الإعلام أو إدارة المطبوعات) فتراجعه مراجعة دقيقة، وتختتم كل صفحة منه، ثم تجيزه بعد فترة من الزمن أو لا تجيزه. وميزة هذه الطريقة أنها لا تعرض الناشر للخسارة بعد طباعة الكتاب وعدم إجازة توزيعه.

٢ - مصادرة الكتاب إذا مس جوهر القيم والمعتقدات. مع إباحة النشر عموماً. وتلجأ البلدان التي قطعت شوطاً في الممارسة الديمقراطية إلى هذا الأسلوب، وهى غالباً ما تلجأ إلى المصادرة في أحوال نادرة جداً.

٣ - الحصول على إذن بتوزيع الكتاب المطبوع في الخارج بعد مراجعته. وهو ما يسمى الإذن (بالفسح) في بعض البلدان العربية، أى بأن يفسح أمامه مجال التوزيع وفي هذه الحالة قد يكون الباب ضيقاً شديد الضيق بحيث تصبح قائمة المنوعات كبيرة جداً، أو قد يكون المحظور هو ما يمس قيم المجتمع مساً مباشراً أو نظام الحكم مساً مباشراً أيضاً.

٤ - الرقابة المتعلقة بطباعة المصاحف حتى لا يتعرض المصحف للتشويه والخطأ في طباعته. وهى قائمة في كافة البلدان الإسلامية بصور مختلفة.

٥ - الرقابة على تصدير الكتاب. وتلجأ إليها بعض الدول لإحكام سيطرتها المالية على التوزيع الخارجى، أو لمجرد التعقيد الإدارى الساذج من الموظفين المعقبي.

وبرغم كل ذلك فإنه من حسن حظ الكتاب في عالمنا النامى المعاصر أنه ينتمى ديمقراطياً إلى حرية التعبير، لا إلى حرية الحركة أو التنظيم. وكثير من بلدان العالم الثالث تسمح بقدر من حرية التعبير، ولكنها تمنع أقل قدر من حرية الحركة بإنشاء تنظيمات أو أحزاب أو جمعيات تضع الأفكار موضع التنفيذ.

مستقبل الكتاب:

يقول الجاحظ في كتابه الحيوان: «الكتب أبقي من بنيان الحجارة، وحيطان المدر، لأن من شأن الملوك أن يطمسوا على أثار من قبلهم، وأن يمتوا ذكر أعدائهم، فقد هدموا بذلك السبب المدن وأكثروا الحصون. كذلك كانوا أيام العجم، وأيام الجاهلية، وعلى ذلك هم في الإسلام، كما هدم عثمان بن عفان صومعة غمدان، وكما حطم الآطام التي كانت تحيط بالمدينة».

وما زال المعاصرون يؤكد قولهم ما قال الجاحظ. فيرى «أدوين امرى»^(٢١) وغيره من الباحثين الأمريكيين في الإعلام أن الكتاب هو وسيلة الاتصال الجماهيري التي تؤثر على حياتنا أجمعين - كما سبق القول -، فالكتاب ينقل الكثير من تراث الماضي. ولا تستمر حياة الأمة التعليمية والمهنية والاجتماعية بعير الكتاب. فالقضاة لا بد لهم من فحص مجلدات القوانين بصورة مستمرة، والأطباء يرجعون دائماً إلى خزائن الحكمة الطبية والعلاج. ولا بد لموظفي الحكومة من الرجوع إلى لوائح القوانين. والمدرسون والطلبة يجدون في الكتب المقررة المعرفة الشاملة بالتاريخ والفلسفة والعلم والآداب والعلوم الاجتماعية التي تجمعت وتراكت على مر العصور. والرجال والنساء في كل عمل من أعمال الحياة يقرءون حتى يظلوا على صلة قوية بما يجري في العالم السريع التغير من حولهم، وليجدوا إيجاءً واستجماماً ولذة، وليكتسبوا معرفة. والكتب، بغير شك، تفسر وتوضح كل وجه من أوجه النشاط. وكانت الكتب الخلاقة من السمات الرئيسية المميزة التي قيست بها كل حضارة عالمية تالية. فعلى سبيل المثال، لقد عكست أعمال أفلاطون وأرسطو بحسن الحياة الأغريقية الباكورة، بل ونقت هذه الحياة. ولقد فحص المؤرخون الاجتماعيون الأدب الإبداعي، كما فحصوا معالم الحضارة لكي يعرفوا حياة سعب ما في زمن معين ومكان معين.

ولقد أكد «أدوين امرى» ما قاله «كلاونس داي» بأن عالم الكتب هو أكبر إنجازات الإنسان، فلا شيء غير الكتب يبقى نفس البقاء. فالنصب تنهار وتسقط، والأمم تهلك، والمدنيات تنمو وتزدهر ثم تذوى وتموت.. يعم الظلام حتى تأتي أجيال جديدة تعيد البناء الحضارى. ولكن في عالم الكتب تقع على مجلدات ما زالت شابة وجديدة جدتها يوم رأت النور لأول مرة. ما زال الرجال يسرون لقلوب الرجال بما كان في قلوب أناس رحل أصحابها منذ قرون.

والدكتور زكى نجيب محمود^(٢٢) يقول إن الكلمة تجمع في طبيعتها بين فن التعبير وفن التشكيل في آن معاً. بمعنى أن العمل الفني على إطلاقه إما أن يكون ذا طبيعة زمنية، بمعنى أن القطعة الفنية لا بد لها أن تمتد استعراضها لدى المتلقى فترة زمنية معينة، كالمعزوفة الموسيقية، أو قصيدة الشعر أو الرواية، أو المسرحية. فهذه كلها أشياء لا تكفيها لحظة زمنية خاطفة، ليلم المتلقى بكل أجزائها دفعة واحدة، بل لا بد لها من فترة تضى، منذ يبدأ سماعها أو مشاهدتها إلى أن ينتهى. وإما أن يكون العمل الفني ذا طبيعة (مكانية)، وذلك عندما يكون معروضاً كلية دفعة واحدة في رقعة مكانية واحدة، وعندئذ تكفيه اللحظة من المتلقى ليعلم كل ما هنالك، حتى ولو احتاج بعد ذلك إلى تحليل العناصر المكونة له تحليلاً متأنياً، وذلك هو الموقف بالنسبة إلى صورة أو تمثال. ولقد اصططلحنا على أن نطلق على أن العمل الفني ذى الطبيعة الزمنية اسم (الفن التعبيري)، وعلى العمل الفني ذى الطبيعة المكانية اسم (الفن التشكيلي).

وكل وسيلة من الوسائل الثقافية إما تقع في مجال التعبير أو في مجال التشكيل إلا (الكلمة) فهي تشكيل وتعبير معاً. ويشرح لنا هذه الفكرة الباهرة بأننا نستطيع أن نتبين صوراً أربعة في حياة الكلمة. فهي في صورتها (المنطوقة) مصنوعة من موجات يهتز بها الهواء، وفي صورتها المسموعة ذبذبات في جهاز

Edwin Emery, Phillip H. Ault, Warren K. Agee - Introduction To Mass- Communication. (٢١)
Second Edition- Dodd Mead Company, Inc- Newyork- 1968- p. 273-274.

(٢٢) د زكى نجيب محمود - الكتاب أولاً والكتاب أخراً - مجلة العربي - أغسطس ١٩٨١.

السمع، وفي صورتها المكتوبة كتلة من مادة - كالمداد أو الرصاص أو الطباشير - كآية كتلة مادية أخرى في الطبيعة، ثم هي في صورتها (المقروءة) ذبذبات في جهاز الإبصار، وواضح أن لكل من هذه الصور مميزاتها الخاصة، على أن هذه الصور الأربع - عادة - تقترن معا اثنتين اثنتين، فإذا كانت (منطوقة - مسموعة) كانت أدخل في مجال التعبير ذى الطبيعة الزمنية، وأما إذا كانت (مكتوبة - مقروءة) فهي عندئذ أدخل في الفن التشكيلي ذى الطبيعة المكانية. وعضى الدكتور قائلاً: «إن بيننا اليوم من أخذ يتساءل فيم عناء الكتابة والقراءة في عصر أصبحت فيه أشرطة التسجيل الصوتي بهذا اليسر كله وهذا الشبوع كله. ويجيب على ذلك بأنه لا ثقافة إلا إذا كان كتاب، وكانت كتابة وقراءة. لماذا؟ لأننا ننظر في حياة الناس الثقافية كلها. فلا نكاد نرى موقفاً واحداً لا يتضمن الكتاب (أو قل «الكتابة») بطريق غير مباشر، حتى وسائل التسجيل الصوتي نفسها، ينبر جداً ألا تكون مسبوقة بنص مكتوب، قرأه قارئ ليم التسجيل. يضاف إلى ذلك أن عملية الكتابة والقراءة منظوية على خصائص ذات أثر في التكوين الثقافي، مما يستحيل أن يتحقق لو اكتفينا بالصوت انسمع وحده، وذلك لأن العملية الرمزية التي تؤديها الحروف والكلمات والجمل - عندما تكون مكتوبة ثم مقروءة - تتضمن حركة عقلية لا تتوافر للإنسان إلا وهو في درجة عليا من درجات النهاء والتطوير؟ وأما الصوت وسماعه، في قدرة الطفل منذ العام الأول بل هي قدرة في طبيعة الحيوان، وحين يقول القائلون عن الإنسان إنه يتميز دون سائر الحيوان باستخدامه للرموز، فهم إنما يعنون، ثم هم يشيرون في تلك الرموز اللغوية إلى الرموز المكتوبة المقروءة أول ما يشيرون، وذلك لأن عملية الكتابة (فالقراءة) فيها من التحليل والتركيب أكثر جداً مما تتضمنه من ذلك عملية النطق (فالسمع)، ففي وسع الطفل ذى العامين أن يسمع جملة كاملة ثم ينطق بها دفعة واحدة، مع أن هذه الجملة نفسها لا تستطيع كتابتها إلا بعد إدراك تحليلي لكلماتها وحروفها، أي أنه لا بد من معرفة الأجزاء الأولية وطرائق تركيبها. ونضيف إلى فاعلية العقل في عملية التحليل والتركيب أثناء الكتابة والقراءة فاعلية عقلية أخرى، ليس لها ما يوازها في التلقى عن طريق السمع إلا إلى حد ضئيل، وأعني بها ذلك الحوار الصامت الذي ينشأ بين القارئ والكتاب، وأما في حالة الاستماع إلى إذاعة، فالسامع أقرب إلى واقف مر به قطار، أطل من نافذته راكب يتكلم، فأما سمعه ووعاه، وإما ضاعت منه الفرصة إلى الأبد. ولم أقل شيئاً عن المادة العلمية حين تكون متصلة ومستفيضة، وحين تكون مكتوبة في أرقام ومعادلات وإحصاءات وخرائط، وحين يكون الموضوع عن فن التصوير والنحت والعمارة، وحين يكون لكتاب معجباً أو موسوعة أو أى مرجع آخر نلجأ إليه حيناً بعد حين».

وفي أوائل عام ١٩٨٢ نظمت مجلة (لير) الفرنسية ندوة عن الكتاب في عام ٢٠٠٠م^(٢٣) اشترك فيها عدد من النقاد والأدباء والناشرين. وكانت حصيلة الأفكار المطروحة في الندوة جديرة بالاهتمام. ولكن بصفة عامة يمكن تقسيمها إلى قسمين رئيسيين. قسم يرى أن الكتاب بشكله المعاصر ماض في طريقه إلى ما بعد عام ٢٠٠٠م، وقسم آخر يرى أن الأشكال الجديدة للكتاب قادمة لا محالة وأنها ستزيح الشكل المعاصر عن مكانته الحالية ليحل الجديد محل القديم. ويمكن الإشارة إلى أقوال المؤيدين لبقاء الكتاب بشكله المعاصر آماداً بعيدة بما يلي:

(٢٣) فتحى العشرى - ندوة عالمية عن الكتاب في عام ٢٠٠٠ جريدة الأهرام بتاريخ ١٩٨٢/٤/٢م

* قال مقدم الندوة: أغلق التليفزيون وتأمل الكتب المرصوفة في مكتبك برؤية شاملة وتخيل كم من القضايا والأفكار، وبكم لغة أجنبية قد طرحت.

* ويقول البعض: لا أعتقد أن تطور الأجهزة السمعية والبصرية خلال العشرين عامًا المقبلة قد يكون تطوراً كبيراً إلى الحد الذي نتوقف له كل المطابع وبالتالي كل الكتب أو بمعنى آخر نتوقف القراءة حتى ولو تم التعليم بتلك الوسائل فالحرف مكتوب والكلمة مكتوبة والعبارة مكتوبة. فهل يمكن أن نقرأ الفلسفة على الشاشة مثلاً؟ وهل نتعلم هندسة الخطوط والتصميمات من التليفزيون مثلاً؟ ويؤكد استمرارية الكتاب أن العشرين سنة الماضية لم تسجل هبوطاً في نسبة المطبوع من الكتب ولا في نسبة توزيعها.

* ويقول البعض: لأسباب تاريخية سيظل الأدب مكتوباً. وإن كان التأكيد على هذا يظل مرهوناً بالمستقبل. ويذهب البعض إلى أن القراءة جهد إرادى حر يعنى السعادة للقارئ. وحضارة الكلمة المطبوعة حضارة قرون طويلة تؤكد أن هذا الجهد يتضمن قيمة أساسية. ولكن هل تحيا حضارة الجهد؟

* ويقول أحدهم: هنالك فارق كبير على الأقل في الوقت الحاضر بين ما نتلقاه عن طريق القراءة الفردية وما نتلقاه عن طريق الأجهزة السمعية والبصرية. تلك الأجهزة التي تؤكد على تأصيل عادة القراءة كعادة حضارية أو متحضرة. ويستكمل قوله في هذا المعنى. إن على الناشرين أن يطمئنوا على الأقل فيما يتعلق بنشر القواميس. فهل يمكن استبدال القواميس بشيء آخر. ولا ننسى (الكتب السماوية) الباقية كما هي على الرغم من نشرها بالوسائل السمعية والبصرية الأخرى.

* ويقول آخر: لا شك أن القضية ليست مطروحة بنفس القدر على مستوى العالم. فالدول التكنولوجية تختلف عن دول العالم الثالث. ذلك أن الوفرة الاقتصادية تجعل المواطن في غنى إلى حد ما عن الكتاب الذي استبدله بالأجهزة الحديثة. وهذا ما يدعو الناشرين إلى تغيير شكل الكتاب التقليدى ونشره في شرائط تسجيل أو فيديو أو «فيلم». أما في الدول النامية فالكتاب يحتفظ بتمتعته وفائدته حتى وإن ظل على شكله التقليدى.

* ويقول آخر: لقد تحولت الكتب من الآن إلى شرائط الميكروفلم، ولكن هذا التحول هدفه الحفظ وليس القراءة، أى أن الميكروفلم مرحلة تأتى بعد صدور الكتاب، أو هي مرحلة نتيجة لنشر الكتاب. وعلى الوجه الآخر لماذا لا ننظر إلى الكتاب بتفاوت على اعتبار أن التعليم في تطور مستمر، وأن عدد المتعلمين في تزايد. وبالتالي فإن عدد القراء يتزايد. وهذا يدعو إلى توفير الإمكانيات. ولقد اخترعت ماكينة طباعة (كامرون) تطبع وتقص وتجلد سبعة آلاف نسخة من كتاب يصل عدد صفحاته إلى ٣٠٠ صفحة في ساعة واحدة.

وفي الجانب الآخر تذهب آراء المخالفين لفكرة بقاء الكتاب في شكله المعاصر، لآماد طويلة، القول بأن الكتاب قلت قيمته، إما بسبب الرقابة السياسية، أو بانصراف القراء إلى متع أسرع وأمتع تمثل في الأجهزة السمعية والبصرية. وتقول إحدى المشاركات في الندوة: علينا أن نفرق بين الكتب التي تحفظ «الفريزر» (التلاجة) لحاجتها لوقت طويل للتوزيع وبين الكتب التي تخرج من القرن إلى القرن وهي ساخنة مباشرة. وأعتقد أن السنوات القادمة لن تعطى اهتماماً لكتب التلاجات.

* ورأى آخر تقول صاحبه: أتخيل كتاباً من البلاستيك أقرؤه، ثم أمحو ما قرأت، وأعيد الكتاب إلى النشر، لكي يطبع عليه محتوى جديدًا في ثوان، أقرؤه وأمحوه وأعيد الكتاب وهكذا. هذه الأفكار تجعل ما طرحتها ندوة مجلة «لير»، ولقد ذكر أمامي أحد عمداء كليات الإعلام الأمريكيين عام ١٩٨١، في لقاء له بطلية إحدى الجامعات العربية أن تكنولوجيا الإعلام توصلت إلى تصميم شرائط للجهاز (فيديودسك) جديد، هذه الشرائط تشبه أسطوانة الفونوغراف تسجل عليها صور صفحات الكتب وتعمل بأشعة الليزر. وأنها صممت على أساس استيعابها لصفحات تبلغ ٥٥ ألف صفحة ويستطيع القارئ أن يقلب الصفحات بالضغط على زر. وأضاف بأن ذلك يناسب دوائر المعارف ويسهل عمل الباحثين.

وفي مارس ١٩٨٣ نشرت مجلة العربي الصورة التالية:



وتحتها عنوان: كتب المستقبل، قائلة:

* «الأسطوانة أو اللفافة التي ترى في الصورة ليست شريطاً خاصاً بجهاز تسجيل من نظائر القديم... إنها كتاب كبير، بل موسوعة تقع في نحو ١٠ مجلدات، وفي حوالي ٦٠٠٠ صفحة، لو كانت لتطبع على ورق على نحو ما تطبع كتب هذه الأيام.. إنها - باختصار - كتاب المستقبل. ولعل أول ما يلاحظ المرء في كتب المستقبل التوفير في الحجم، وبالتالي في الحيز الذي تشغله الكتب. أضف إلى ذلك الوضوح وسهولة القراءة. قراءة محتويات الكتاب، بل الشريط، بواسطة المنظار الخاص به، ولو نحن ذكرنا أن كتب المستقبل هذه ليست أعلى من الكتب الورقية. بل إنها أرخص منها بنسبة كبيرة لما شك أحد في أن كتب المستقبل ستكتسح الأسواق دون منازع. فالثمن الذي تدفعه لشراء موسوعة كالتى في الصورة (١٠ مجلدات x ٦٠٠٠ صفحة) لا يزيد على ٧ دولارات يضاف إلى ذلك ٣ دولارات ثمن المنظار. تلك هى أسعار الوقت الحاضر. وأغلب الظن أنها ستخفض كثيراً لدى شيوعها في المستقبل. على أن أسلوب التسجيل في الكتب الجديدة ليس أسلوب الفيديو. ولعله أقرب إلى أسلوب الميكروفلوم، فالأسطوانة الأم تصور عليها محتويات الكتاب بواسطة الأشعة الالكترونية مصغرة بمقدار ١ : ٨٨ - بالنسبة إلى حجمها الأصلي، ويسهل بعد ذلك صنع نسخ بلاستيكية Theimoplastic عن تلك الأسطوانة بكميات كبيرة وتكاليف زهيدة. وتجدر الإشارة إلى أن هذه الكتب مجهزة بكمبيوتر يمكنك من العثور على الموضوع الذى تريد، وفتح الكتاب عند الصفحة الذى تريد. ويقال إن ربات البيوت سيتخلصن من النعرة التى يحملنها ضد الكتب الورقية وذلك على الأقل

بالنظر لما تتيحه الكتب الجديدة من توفير في المكان». وخلاصة القول فيما يتعلق بمستقبل الكتاب يمكن إيجازها فيما يلي:

* الكتاب والصحيفة يربطها ميراث مشترك ولا شك أن لها مصيراً مشتركاً. ومن هذه الرؤية تبين مستقبلاً مزدهراً للكلمة المطبوعة، ونموً مضطرباً في المضمون والشكل.

* الثورة التكنولوجية للإعلام المعاصر جعلت الكرة الأرضية تسمى بالقرية العالمية، ولا بد من انعكاس ما يحدث في العالم الفنى المتقدم على العالم الثالث في مجال النشر بصفة عامة، وفي مجال الكتاب على وجه الخصوص.

* وسائل الإعلام لا تلغى بعضها بعضاً، وإنما يؤثر بعضها في البعض، وكان بالأحرى أن يلغى التلفزيون بظهوره الراديو كوسيلة إعلام. ولكن الذى حدث هو ازدهار الراديو بعد التلفزيون.

* جمهور الوسائل الإعلامية مشترك ولكنه ليس بعلامة (-) على طول المدى، أحياناً يكون بعلامة (+) فمشاهدى الفيلم السينمائي زاد عددهم بالتلفزيون، وإن قلت نسبة ذهابهم إلى دور السينما عن ذى قبل.

* التطور قانون من قوانين الحياة. وخروج الجديد من قلب القديم قانون من قوانين الحياة. وقد انطبق ذلك على الكتاب في تاريخه الطويل، من حيث الشكل ومن حيث المضمون، ولا بد أن ينطبق ذلك على مستقبله. ولكن كيف؟ ذلك ما تجيب عنه الأجيال القادمة وفق ظروفها وحاجاتها. بل إن تفكيرنا لهم في مجال الكتاب ترف عقلى ساذج، وتطفل على حياة الأجيال. والأخطر من ذلك أنه يصرفنا عن لب قضيتنا مع الكتاب وهي حاضر الكتاب، وكيف نجود ونحسن ونثرى هذا الحاضر. وهذا ما نعنيه بمستقبل الكتاب. المستقبل المنظور.. أو المستقبل المتعلق بنا.